

ألكسندر بوشكين

دوبروفسكي

ترجمة أبو بكر يوسف

دوبروفسكي

تأليف
ألكسندر بوشكين

ترجمة
أبو بكر يوسف



دوبروفسكي

Дубровский

ألكسندر بوشكين

Alexander Pushkin

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٤٠٧ ٦

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الروسية عام ١٨٣٢.
صدرت هذه الترجمة عام ١٩٨٨.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

المحتويات

الجزء الأول

الفصل الأول

منذ عدة أعوام خلت عاش النبيل الروسي العريق كيريلا بتروفيتش ترويكورف في إحدى ضِيَعه. وقد هيَّأ له ثراؤه وأصله العريق وعلاقاته مركزًا مرموقًا في المحافظات التي ضمت أملاكه. وكان جيرانه على أتم الاستعداد لإشباع أقل نزوة من نزواته. أمَّا موظفو المحافظة فكانوا يرتعدون لدى سماع اسمه. ولقد تقبَّل كيريلا بتروفيتش علامات الخنوع هذه كجزية واجبة. وكانت داره تغص دائمًا بالضيوف المستعدين لتملُّق لهوَه الأرستقراطي، ومشاركته مرحَه الصاخب، بل والعاصف أحيانًا. ولم يكن أحد ليجرؤ على رفض دعواته، أو التخلُّف عن الحضور إلى قرية بكروفسكويه في أيام معينة؛ لتقديم فروض الولاء. وفي حياة كيريلا بتروفيتش المنزلية تجلَّت كل رذائل الإنسان الجاهل. لقد كان مدلَّلًا من قِبَل كُل مَا يحيط به فتعوَّدَ أن يطلق العِنان لنزوات طبعه العاصف، وللمكائد التي يدبرها عقله المحدود. وبالرغم من إمكانياته البدنية الخارقة؛ فقد كان يعاني من التخمة مرتين في الأسبوع، ويسكَر كل مساء. وفي أحد أجنحة داره كانت تقطن ١٦ وصيفة، يعملن في أشغال التطريز، ذلك العمل المميز لجنسهن. وكانت النوافذ في الجناح تحجبها شبكة من العوارض الخشبية، والأبواب تُقفل بالكوالين التي يحتفظ كيريلا بتروفيتش بمفاتيحها. وفي ساعات معيَّنة كانت السجينات الشابات يخرجن إلى الحديقة للتريُّض، تحت رقابة امرأتين عجوزين. ومن وقت لآخر كان كيريلا بتروفيتش يزوِّج بعضهن، ثم تحلُّ وصيفات جديدات محل من تزوجن.

أمَّا معاملته للفلاحين والخدم؛ فكانت صارمة وتحكمها أهواؤه. ومع ذلك فقد كانوا يكنُّون له الولاء، ويتباهون بثراء ومجد سيدهم، ويتطاولون كثيرًا على جيرانهم معتمدين على حمايته القوية.

كان العمل الدائم لترويكورف هو الطواف بأملاكه الواسعة، وإقامة الولائم المستمرة، وتدبير المكائد كل يوم، والتي عادةً ما يقع ضحيتها أحد المعارف الجدد، وإن كان أصحابه القدامى لا يتَّقون شرها دائمًا، باستثناء أندريه جافريلوفيتش دوبروفسكي فقط. وكان ملازم الحرس المتقاعد دوبروفسكي هذا أقرب جار إليه، ويملك سبعين فلاحًا. ومع أن ترويكورف كان متعجرفًا في علاقاته مع أرفع الناس مقامًا، إلَّا أنَّه كان يحترم دوبروفسكي رغم ثروته المتواضعة. لقد كانا في وقتٍ ما رفيقين في السلاح، وعرف ترويكورف بتجربته، مدى ضيق صدره وطبعه الحازم. ثم فرقتهما الظروف لمدة طويلة. واضطر دوبروفسكي بثروته المنهارة إلى الاستقالة، والإقامة في ضيعته الوحيدة الباقية. وعندما علم كيريلا بتروفيتش بذلك، عرض عليه حمايته، لكن دوبروفسكي شكره، وظل فقيرًا ومستقلًّا. وبعد عدَّة سنوات قدِم ترويكورف إلى ضيعته بعد أن أصبح جنرالًا، فالتقيا، وفرح كل منهما بلُقيا الآخر. ومن ساعتها وهما يتقابلان كل يوم، وصار ترويكورف، الذي لم يشرِّف أحد بزيارته، يتردد ببساطة على دار صديقه القديم المتواضعة. ولما كانا من عمرٍ واحد، وأبناء طبقةٍ واحدة، وتربيةٍ متشابهة، فقد التقيا إلى حدٍّ ما من حيث الطبع والهوايات. بل لقد كان مصيرهما أيضًا متشابهًا من بعض النواحي. فقد تزوَّج كلاهما عن حب، وترمَّل كلاهما بسرعة، وتبقَّى لكلٍّ منهما مولود، فتربَّى ابن دوبروفسكي في بطرسبرج، وشبَّت ابنة كيريلا بتروفيتش في منزل أبيها. وكثيرًا ما كان يقول لدوبروفسكي: «اسمع يا أخي أندريه جافريلوفيتش. إذا ما شبَّ ولدك فتًى طيبًا، فسأزوجه من ماشيا، فالفقر ليس عيبًا». ولكن أندريه جافريلوفيتش كان يهز رأسه ويردده عادة: «كلا يا كيريلا بتروفيتش، إن ابني فولوديا لا يصلح زوجًا لابنتك ماريا كيريلوفنا، فمن الأفضل لنبيل فقير مثله أن يتزوج من نبيلة فقيرة، ويصبح سيد الدار، على أن يكون خوليًا لامرأة مدللة.»

كان الجميع يغبطون هذا الوفاق السائد بين ترويكورف المتغطرس وجاره الفقير، ويدهشون لجرأة الأخير عندما كان يقول رأيه بصراحة على مائدة كيريلا بتروفيتش، دون أن يعنيه إن كان يتعارض مع رأي رب الدار أم لا. وقد حاول البعض أن يقلِّدوه ويخرجوا عن حدود الإذعان الواجب، ولكن كيريلا بتروفيتش أرعبهم لدرجة أنه وأد فيهم الرغبة في مثل هذه المحاولات، وظل دوبروفسكي وحده خارج حدود القانون العام. غير أنَّ حدثًا عارضًا أفسد كل شيء وبدَّله.

فذات مرَّة في بداية الخريف، استعدَّ كيريلا بتروفيتش للخروج إلى الصيد، وصدرت الأوامر مسبقًا إلى مدربي الكلاب وساسة الخيول، بأن يكونوا مستعدين في الساعة الخامسة

صباحًا. وأُرسلت الخيمة والمطبخ سلفًا، إلى المكان الذي كان من المفروض أن يتناول فيه كيريلا بتروفيتش غداءه. وتوجَّه رب الدار وضيوفه إلى حظيرة الكلاب، حيث كان يعيش أكثر من خمسمائة من كلاب الصيد، متمتعة بالدفء والرفاهية، مشيدة بكرم كيريلا بتروفيتش بلغتها الخاصة. وكان هناك أيضًا مستشفى للكلاب المريضة، تحت رعاية «الحكيم الرئيسي» الفلَّاح تيموشكا، وكذلك قسم للإناث الأصيلة؛ لتلد فيه وترضع صغارها. وكان كيريلا بتروفيتش يفخر بهذه المؤسسة الرائعة، ولم يترك مناسبة تمر إلَّا وتباهى بذلك أمام ضيوفه، الذين كان كل واحدٍ منهم يراها للمرة العشرين على الأقل. وأخذ يتمشَّى في الحظيرة يحف به ضيوفه، ويرافقه تيموشكا وكبار مدربي الكلاب، ويتوقف أمام بعض حظائر الكلاب سائلًا تارةً عن صحة المرضى، وتارةً موجهًا ملاحظات صارمة وعادلة إلى هذا الحد أو ذاك، وتارةً أخرى مناديًا بعض الكلاب المحببة إليه؛ فيتحدث إليها برقة، وكان الضيوف يرون من واجبهم أن يثنوا على حظائر كيريلا بتروفيتش، لكن دوبروفسكي وحده ظل صامتًا وعابسًا. لقد كان صيادًا مولعًا بالصيد، ولم تمكنه ثروته من اقتناء أكثر من كلبين من كلاب الصيد، ومجموعة صغيرة من الكلاب السلوقية؛ فلم يستطع أن يكتم بعض الحسد عندما رأى هذه المؤسسة الرائعة.

وسأله كيريلا بتروفيتش: ما لك عابس يا أخي؟ أم ترى حظائري لا تعجبك؟

فأجابه بجفاء: كلا، حظائرك خلَّابة، وإني لأشك أن رجالك يعيشون مثلما تعيش كلابك.

فانزعج أحد مدربي الكلاب وقال: إننا والحمد لله وللسيد، لا نشكو من عيشتنا، ولكن الحقيقة تبقى حقيقة، فإن بعضًا من النبلاء لا يضيره أن يستبدل بضيعته حظيرة من حظائر الكلاب هذه، فسيشعر هنا بشبع ودفء أكثر.

وقهقه كيريلا بتروفيتش عاليًا عندما سمع ملاحظة تابعه الجريئة، وقهقه الضيوف على أثره، مع أنهم أحسوا أن مُزحة مدرب الكلاب يمكن أن تمسهم أيضًا. وشحب وجه دوبروفسكي، ولم ينبس ببنت شفة.

وفي هذا الوقت جيء لكيريلا بتروفيتش بالجِراء الوليدة، في سلَّة؛ فانشغل بها، واختار من بينها جروين، وأمر بإغراق الباقي، بينما اختفى أندريه جافريلوفيتش، ولم يلحظ أحد ذلك.

عندما عاد كيريلا بتروفيتش وضيوفه من الحظائر، جلس لتناول العشاء، وساعتها لاحظ تخلف دوبروفسكي؛ فسأل عنه، فأخبروه بأنه عاد إلى داره؛ فأمر ترويكورف أن يلحق

به أحد فورًا، ولا يعود إلَّا به. فلم يحدث أبدًا أن خرج للصيد بدون دوبروفسكي، المقدِّر الخبير والعالِم بميزات كلاب الصيد، والحلَّال الذي لا يخطئ لكل خلافات الصيادين. وعاد الخادم الذي انطلق لإحضاره ولمَّا ينتهِ العشاء، فأفضى إلى سيده بأن أندريه جافريلوفيتش لم يطِع الأمر ورفض أن يعود، وغضب كيريلا بتروفيتش، وقد هيَّجه الشراب كعادته، فأمر هذا الخادم نفسه بأن يعود إلى أندريه جافريلوفيتش، ويبلغه بأنه إذا لم يعُد حالًا ويقضي ليلته في بكروفسكويه فإنه، أي ترويكورف، سيخاصمه إلى الأبد. وقفل الخادم راكضًا، ونهض كيريلا بتروفيتش من الطاولة، وصرف ضيوفه وتوجَّه للنوم.

وفي اليوم التالي، كان أول سؤال وجهه هو: هل أندريه جافريلوفيتش موجود؟ وبدلًا من الجواب، قدَّموا إليه رسالة مطوية على شكل مثلث، فأمر كيريلا بتروفيتش كاتبه أن يقرأها جهرًا، فسمع التالي:

«سيدي الفاضل، لقد عقدتُ العزم على ألَّا أعود إلى بكروفسكويه ما لم ترسلوا إليَّ مدربَ الكلاب باراموشكا ليُقدِّم اعتذارَه. وسيكون لي الخيار أن أعاقبه أو أعفو عنه، فلستُ مستعدًّا أن أقبل مزاح أتباعكم، بل ولا حتى مزاحكم أنتم؛ إذ إنني لستُ مهرِّجًا، بل أنا نبيل عريق. وتفضَّلوا بقَبول فائق احترامي.»

أندريه دوبروفسكي

ولو حكمنا على هذه الرسالة، من خلال مفاهيمنا الحالية عن المجاملة؛ لاعتبرناها مجافيةً تمامًا للأدب؛ ولكن الذي أغضب كيريلا بتروفيتش لم يكن كلماتها وأسلوبها الغريب، بل محتواها.

زمجر ترويكورف وهو يقفز حافي القدمين من الفراش: ماذا؟ أأرسل إليه أتباعي ليعتذروا له، وله الخيار أن يعفو عنهم أو يعاقبهم؟ ترى من يظن نفسه حقًّا؟ وهل يعرف ضد من يقف؟ حسنًا ... سوف أريه ... سوف يندم كثيرًا، وسيعرف ما معنى الوقوف بوجه ترويكورف!

وارتدى كيريلا بتروفيتش ملابسه، ورحل إلى الصيد تحوطه جميع مظاهر الأبهة المعتادة، ولكنهم لم يوفَّقوا في الصيد؛ فلم يروا طوال اليوم إلَّا أرنبًا واحدًا، وحتى هذا لم يفلحوا في اقتناصه، كذلك لم يكن الغداء في الهواء الطلق تحت الخيمة موفقًا، أو على الأقل لم يكن حسب مزاج كيريلا بتروفيتش، الذي ضرب الطاهي وسبَّ الضيوف، وفي طريق العودة مرَّ مع رهطه كله عبر حقول دوبروفسكي عامدًا.

مرت عدَّة أيام ولم تهدأ العداوة بين الجارين، فلم يعد أندريه جافريلوفيتش إلى بكروفسكويه، وشعر كيريلا بتروفيتش بدونه بالضجر، فعبر عن أساه بأقذع الشتائم، التي كانت، بفضل جهود النبلاء المحليين، تصل إلى دوبروفسكي منقَّحة ومزيدة. ثم جدَّ جديد قضى على الأقل الأخير في الصلح.

فقد اتفق ذات مرة أن كان دوبروفسكي يتفقد ضيعته الصغيرة، وعندما اقترب من غيضة أشجار البتولا، سمع ضربات فأس، ثم بعد لحظة، طقطقة شجرة اجتُثت، فأسرع إلى داخل الغيضة، ففاجأ فلاحين من بكروفسكويه، يسرقون أشجاره بهدوء. وعندما رأوه حاولوا الهرب، لكن دوبروفسكي استطاع بمساعدة حوذيه أن يقبض على اثنين منهم، وقادهما مقيدين إلى داره. واستولى المنتصر أيضًا على ثلاثة من خيول العدو غنيمة، وكان دوبروفسكي غاضبًا إلى أقصى حد، فلم يحدث من قبل أن اجترأ رجال ترويكورف المشهورون ببلطجتهم على العبث في حدود ممتلكاته لعلمهم بعلاقة الصداقة التي تربط بينه وبين سيدهم. وقد رأى الآن دوبروفسكي أنهم استغلوا الجفوة التي حدثت، فقرر — مخالفًا جميع قواعد قانون الحرب — أن يجلد أسيريه بغصون الأشجار اللينة، التي سرقاها من غيضته، ويبعث بالخيول للعمل بعد ضمها إلى مواشيه.

وطار نبأ الواقعة إلى كيريلا بتروفيتش في نفس اليوم فجُن جنونه وفكَّر، في فورة غضبه، أن يتوجه مع كل أتباعه ليشنُّوا هجومًا على كيستينيوفكا (هكذا كانت تسمى قرية جاره) فيدمرها عن آخرها، ويحاصر الإقطاعي نفسه في داره، وما كانت هذه المآثر بجديدة عليه، لكن أفكاره سرعان ما سارت في اتجاه آخر.

وبينما كان يروح ويجيء في الصالة بخطوات ثقيلة مضت منه لفتة نحو النافذة فرأى عربة تجرها ثلاثة خيول تتوقف عند البوابة ويخرج منها رجل صغير الجسم يرتدي قبعة جلدية ومعطفًا من قماش خشن متجهًا إلى جناح الخولي، فتعرَّف فيه ترويكورف على المحلِّف شاباشكين، وأمر باستدعائه. وما هي إلَّا لحظة حتى كان شاباشكين ماثلًا بين يديه، محييًا بانحناءة تلو انحناءة ومنتظرًا أوامره برهبة وخنوع.

وحيَّاه ترويكورف قائلًا: كيف حالك يا هذا … ماذا وراءك؟

فأجاب شاباشكين: لقد كنت ذاهبًا إلى المدينة يا صاحب المعالي فعرجت على إيفان دميانوف لأعرف إن كان هناك أية أوامر من معاليكم.

– لقد جئت في الوقت المناسب يا هذا … إني بحاجة إليك. خذ قدحًا من الفودكا وأصغِ إليَّ.

وأصاب هذا الاستقبال الرقيق الموظف بذهول محبب؛ فاعتذر عن تناول الفودكا، واستعد لسماع كيريلا بتروفيتش بكل ما وسعه من انتباه.

وقال ترويكورف: يوجد لديَّ هنا جار، إقطاعي صغير وقح، وأريد أن أستولي على ضيعته، فما رأيك في هذا؟

– إذا كانت لديكم يا صاحب المعالي أية مستندات أو …

– كفى هذرًا يا صاح. أية مستندات تريد! هذا أمر معروف، إنما المقصود أن نستولي على الضيعة بدون وجه حق. ولكن مهلًا … لقد كانت هذه الضيعة في وقتٍ ما ملكنا، اشتريناها من المدعو سبيتسين، ثم بيعت بعد ذلك إلى والد دوبروفسكي. ألا يمكن أن نتمحك بذلك؟

– أمر عسير يا صاحب المعالي. أغلب الظن أن البيع قد تم بطريقة قانونية.

– فكِّر يا صاح … ابحث جيدًا.

– لو كان بإمكانكم مثلًا يا صاحب المعالي أن تحصلوا بأي وسيلة من جاركم على العقد الذي يثبت ملكيته للضيعة، لكان طبعًا …

– مفهوم، ولكن المصيبة، أن كل أوراقه احترقت عندما شبَّت بمنزله النار.

– ماذا تقول يا صاحب المعالي … احترقت أوراقه! هذا أقصى ما تتمناه. في هذه الحالة تصرف حسب القانون، وستصل دون أدنى شك إلى غاية ما تصبو إليه.

– هل تعتقد ذلك؟ حسنًا، إني أعتمد على جهودك، ولك أن تطمئن بخصوص المكافأة.

وانحنى شاباشكين حتى كاد يلامس الأرض ثم خرج. ومن يومها أخذ يسعى في هذا الأمر، وبفضل دهائه، تلقَّى دوبروفسكي من المدينة بعد أسبوعين بالضبط دعوة بتقديم التفسيرات الضرورية فورًا، بخصوص ملكيته لقرية كيستينيوفكا.

وذُهل أندريه جافريلوفيتش لهذا الطلب المفاجئ؛ فكتب في نفس اليوم مذكرة شديدة اللهجة، أعلن فيها أن قرية كيستينيوفكا آلت إلى ملكيته بعد وفاة المرحوم والده، وأنه يملكها بحق الوراثة، وليس لترويكورف أي دخل بذلك، وأي تطلع إلى ملكيته هذه لا يعدو أن يكون دسيسة واحتيالًا.

وقد تركت هذه الرسالة أثرًا طيبًا في نفس شاباشكين، فقد عرف منها أولًا: أن دوبروفسكي لا يفقه كثيرًا في هذه الأمور، وثانيًا: إن شخصًا بمثل هذا الاندفاع والتهور لن يكون من الصعب زجَّه في أقصى المواقف حرجًا.

وبعد أن بحث أندريه جافريلوفيتش بتمعن أكبر طلبات الموظف، رأى من الضروري أن يرد ردًّا أكثر إسهابًا، فكتب مذكرة مُقنعة ومع ذلك ظهر فيما بعد، أنها لم تكن كافية.

وأخذ الأمر يطول، ولكن أندريه جافريلوفيتش، الواثق من عدالة قضيته، لم يقلق كثيرًا، ولم تكن لديه لا الرغبة ولا الإمكانية أن يبعثر من حوله النقود، ومع أنه كان دائمًا أول من يهزأ بفئة الكتبة لضمائرهم المرتشية، إلَّا أنه لم يجُل بخاطره أبدًا، أن يصبح ضحية للدسيسة. أما ترويكورف، فلم يهتم هو الآخر كثيرًا بكسب القضية التي لفَّقها، فقد كان شاباشكين يسعى من أجله، متحدثًا باسمه، مهدِّدًا وراشيًا القضاة، ومتحايلًا في تفسير مختلف القوانين والمراسيم. وعلى أية حال فقد تلقَّى دوبروفسكي في التاسع من فبراير عام ألف وثمانمائة و... عن طريق بوليس المدينة دعوة بالمثول أمام محكمة ناحية (...) لسماع قرار المحكمة المذكورة في قضية النزاع على ملكية ضيعة بينه هو الملازم دوبروفسكي، وبين الجنرال ترويكورف وللتوقيع على قبوله أو عدم قبوله للقرار. وتوجَّه دوبروفسكي في نفس اليوم إلى المحكمة. وفي الطريق لحق به ترويكورف وسبقه، فنظر كل منهما إلى الآخر بأنَفة، ولاحظ دوبروفسكي ابتسامة شريرة على شفتي خصمه.

الفصل الثاني

عندما وصل أندريه جافريلوفيتش إلى المدينة، نزل ضيفًا على أحد معارفه التجار، فقضى الليل عنده، وتوجَّه إلى محكمة الناحية. ولم يعِرْه أحد التفاتًا، ثم وصل بعده كيريلا بتروفيتش فوقف الكتبة وقد دسُّوا الأقلام خلف آذانهم، أما أعضاء المحكمة فأعربوا عن عميق امتنانهم لرؤيته، وقدَّموا له كرسيًّا بدافع الاحترام لرتبته وسنِّه وهيئته. فجلس أمام الباب المفتوح. أما أندريه جافريلوفيتش فوقف، مستندًا إلى الجدار، وحلَّ صمتٌ عميق، ثم بدأ السكرتير يقرأ قرار المحكمة بصوت رنَّان.

وها نحن نورده هنا كاملًا، اعتقادًا منَّا بأن كل واحدٍ سيسرُّه أن يرى إحدى الوسائل التي يمكن بها في روسيا أن نفقد أملاكنا، التي لنا في ملكيتها حق لا يُنازَع.

صمت السكرتير، ونهض المحلِّف فحيًّا ترويكورف بانحناءة كبيرة، ودعاه للتوقيع على القرار، فوقَّع ترويكورف الظافر على قرار المحكمة بالقبول التام.

وجاء دور دوبروفسكي؛ فقدَّم إليه السكرتير الورقة، ولكنه مكث ساكنًا بلا حراك منكَّس الرأس.

وكرر السكرتير دعوته له بالتوقيع إما بالقبول التام أو عدم القبول القاطع إذا كان يشعر — على غير المتوقَّع — في قرارة ضميره بأن الحق في جانبه وينوي استئناف الحكم لدى الجهات المختصَّة، وفي المدة التي يحددها القانون. وظلَّ دوبروفسكي صامتًا، ولكنه رفع رأسه فجأة، ولمعت عيناه، ودقَّ الأرض بقدمه، ودفع السكرتير بقوة، حتى سقط هذا الأخير، ثم أمسك بالمحبرة وقذف المحلِّف بها. وروَّع الجميع، وصرخ دوبروفسكي: «كيف! ألا تحترمون بيت الله!» ثم مخاطبًا كيريلا بتروفيتش: «هل سمعتم يا صاحب المعالي أن مدربي الكلاب يسوقونها إلى الكنيسة؟! الكلاب تركض في الكنيسة، بيت الله … سأربيكم جميعًا …» وتجمع الحرس على الضجة وسيطروا عليه بصعوبة، ثم أخرجوه وأجلسوه

في الزحافة، وخرج ترويكورف في أثره تحف به هيئة المحكمة كلها. لقد أثَّر عليه جنون دوبروفسكي المفاجئ تأثيرًا شديدًا، وبدَّد نشوة النصر. أما القضاة الذين كانوا يطمعون في كرمه فلم يحظوا منه بكلمة تحية واحدة. وتوجَّه في اليوم نفسه إلى بكروفسكويه، بينما لزم دوبروفسكي الفراش. وعاده طبيب الناحية الذي لم يكن لحسن الحظ جاهلًا تمامًا؛ فحجَّمه وركب له دود العلق والذباب الهندي فشعر بتحسن في المساء وعاد إلى وعيه. وفي اليوم التالي حملوه إلى كيستينيوفكا التي لم تعد ملكه تقريبًا.

الفصل الثالث

مرت فترة من الزمن ولكن حالة دوبروفسكي المسكين ظلت سيئة. صحيح أن نوبات الجنون لم تعاوده، ولكن قواه أخذت تهِن بشكلٍ ملحوظ. لقد نسي هواياته السابقة ولم يعد يغادر غرفته إلَّا نادرًا، ويستغرق في التفكير أيامًا كاملة. وأصبحت يجورفنا، تلك العجوز الطيبة التي كانت تعتني بابنه فيما مضى، مربيته هو الآن. كانت تعتني بشئونه وكأنه طفل صغير، وتذكِّره بمواعيد الأكل والنوم، وتطعمه وتعد له الفراش. واستسلم لها أندريه جافريلوفيتش في هدوء، ولم يعد يختلط بأحد غيرها. لم يكن في مقدوره أن يفكر في أعماله وأموره المالية، فرأت يجورفنا ضرورة إحاطة دوبروفسكي الابن بالأمر كله. وكان الابن يخدم في أحد أفواج مشاة الحرس المرابط في ذلك الوقت في بطرسبرج. وهكذا انتزعت ورقة من دفتر الحسابات وأملت على الطاهي خاريتون، المتعلم الوحيد في كيستينيوفكا رسالة بعثت بها في نفس اليوم إلى مكتب البريد في المدينة.

ولكن آن لنا أن نعرِّف القارئ بالبطل الحقيقي لقصتنا.

تربَّى فلاديمير دوبروفسكي في مدرسة التلاميذ العسكرية، ثم تخرج منها ملازمًا في الحرس. ولم يبخل أبوه بشيء في سبيل تربيته تربية لائقة، فكان الشاب يتلقَّى من المنزل أكثر مما ينتظر. ولما كان مسرفًا ومغرورًا، فقد سمح لنفسه بنزوات مترفة، فكان يلعب القمار ويستدين دون أن يُعنى بالمستقبل، ومؤملًا إن عاجلًا أم آجلًا بعروس غنيَّة، حلم الشباب الفقير.

وذات مساء، عندما كان بعض الضباط مضطجعين على الأرائك في منزله يدخنون من غلايينه الكهرمانية، قدَّم له خادمه جريشا رسالة، ما إن رأى الشاب ختمها وخطها حتى أصابه الذهول، وفضَّها بعجلة وقرأ التالي:

«سيدنا ومولانا فلاديمير أندرييفيتش، قررت أنا مربيتك العجوز أن أحيطك علمًا بصحة والدك. إن حالته سيئة جدًّا وأحيانًا ينطق كلمات لا معنى لها، ويجلس طوال اليوم كالطفل الغبي، والله بيده أمور الحياة والموت. احضر إلينا أيها الغالي وسوف نرسل الخيول لاستقبالك في محطة بيسوتشنويه. يقولون إن المحكمة ستحضر إلينا هنا لوضعنا تحت يد كيريلا بتروفيتش ترويكورف لأننا كما يزعمون نتبعه، ولكننا لكم وحدكم، ولم نسمع بمثل هذا أبدًا. ربما يمكنك وأنت في بطرسبرج، أن تتشفع لدى مولانا القيصر فلن يتركنا للهوان. عبدتك المخلصة ومربيتك.

أرينا يجورفنا بوزيريفا

ابعث ببركات الأم إلى جريشا. هل يخدمك جيدًا؟ المطر عندنا يسقط للأسبوع الثاني. وقد مات الراعي روديا قرب عيد القديس نيقولا.»

قرأ فلاديمير دوبروفسكي هذه السطور المشوشة للغاية عدة مرات متتالية وبقلق بالغ. لقد فقد أمه منذ صغره، وفي الثامنة من عمره أرسلوه إلى بطرسبرج، وهو لا يكاد يعرف أباه، ومع ذلك كان متعلقًا به بصورة رومانسية. وازداد حبه للحياة العائلية بقدر ما فاته أن يتمتع بمباهجها المتواضعة.

لقد عصرت قلبه فكرة أن يفقد أباه، وأفزعته حالة المريض المسكين التي استطاع أن يستشفها من رسالة مربيته. وتخيَّل أباه مهملًا في قرية نائية، بين يدي امرأة عجوز بلهاء وخدم، تهدده كارثة ما، ويذوي دون عون تعذبه آلام الجسد والروح. واتهم فلاديمير نفسه باللامبالاة الإجرامية. فمنذ مدة طويلة لم تصله من أبيه أية رسالة، ومع ذلك لم يفكر هو في السؤال عنه معتقدًا أنه مشغول بالتنقل أو الأمور المتعلقة بإدارة ضيعته.

وقرر أن يذهب إليه، بل وحتى يستقيل إذا تطلب مرض أبيه أن يكون بجانبه. وانصرف رفاقه عندما لاحظوا قلقه. ولما أصبح فلاديمير وحده كتب طلب إجازة، وأشعل غليونه وراح في تفكير عميق.

وفي نفس اليوم أخذ يسعى للحصول على إجازة، وبعد يومين سافر على الخيول يصحبه تابعه المخلص جريشا.

اقترب فلاديمير أندرييفيتش من المحطة التي كان عليه أن ينعطف عندها إلى كيستينيوفكا. وكان قلبه مفعمًا بالتكهنات الحزينة. لقد كان يخشى ألَّا يجد أباه على

قيد الحياة، وتخيل نمط الحياة الكئيب الذي ينتظره في القرية: المنأى والفراغ والفقر والسعي لترتيب أمور لا يفقه فيها شيئًا. وعندما وصل إلى المحطة دخل إلى الناظر وطلب منه جيادًا أخرى. واستعلم منه الناظر عن الوجهة التي يقصدها، ثم أخبره أن الجياد التي أُرسلت من كيستينيوفكا في انتظاره منذ أربعة أيام. وسرعان ما تقدم نحو فلاديمير أندرييفيتش الحوذي العجوز أنطون، الذي كان يتجول معه في الإسطبل فيما مضى، ويُعنى بمهره الصغير. وعندما رآه أنطون دمعت عيناه وانحنى حتى لامس الأرض، وأخبره أن السيد العجوز ما زال حيًّا، ثم هرول ليشد الجياد إلى عربة. واعتذر فلاديمير أندرييفيتش عن قبول الدعوة للإفطار وأسرع بالرحيل. وقاده أنطون في الطريق المار عبر القرى، وجرى بينهما الحديث التالي:

– خبرني من فضلك يا أنطون، ماذا حدث بين أبي وبين ترويكورف؟

– الله أعلم يا سيدي فلاديمير أندرييفيتش. الظاهر أن السيد اختلف مع كيريلا بتروفيتش فرفع هذا ضده قضية، مع أنه هو الآمر والناهي في معظم الأحوال. ما لنا نحن الأقنان نناقش أمور السادة، ولكن، والله العظيم، والدك ما كان عنده حق في وقوفه ضد كيريلا بتروفيتش، فما الفائدة من نطح الصخر؟

– يبدو أن كيريلا بتروفيتش هذا يفعل هنا ما يشاء؟

– صح يا سيدي، هو لا يعير القاضي أبدًا، ورئيس الشرطة كخادم عنده، والسادة يزورونه احترامًا له، وكما يُقال: الذباب يحط على الحلوى.

– هل صحيح أنه سينتزع منا الضيعة؟

– آه يا سيدي، نحن أيضًا سمعنا. من يومين قال راعي كنيسة بكروفسكويه في حفلة التعميد عند عمدتنا: كفاكم لعبًا، سيشدد كيريلا بتروفيتش قبضته عليكم، فقال له الحداد ميكيتا: كفى يا سافيليتش، لا تُحزن قريبك ولا تزعج الضيوف. كيريلا بتروفيتش شيء، وأندريه جافريلوفيتش شيء آخر، وكلنا عبيد الله والقيصر، ولكنك لا تستطيع أن تغلق فم واحد.

– إذن، فأنتم لا تريدون أن تصبحوا ملكًا لترويكورف؟

– ملك لترويكورف! أعوذ بالله. إن فلاحيه يعانون من قسوته، فإذا ما انتقل إلى ملكيته غرباء فلن يسلخ جلدهم فقط، بل ولحمهم أيضًا. كلا، فليهب الله العمر لأندريه جافريلوفيتش، ولو اختاره إلى جواره، فلا نريد أحدًا غيرك راعيًا لنا. لا تسلمنا لأحد وسنقف من خلفك.

قال أنطون هذه الكلمات وهو يلوح بالسوط، ثم هز العِنان فركضت الخيل خببًا.

وصمت دوبروفسكي وقد أثر فيه إخلاص الحوذي العجوز، واستغرق في أفكاره. ومضى أكثر من ساعة عندما استيقظ فجأة على صياح جريشا: «ها هي بكروفسكويه!» ورفع دوبروفسكي رأسه. كانوا يسيرون على شاطئ بحيرة كبيرة، نبع منها نهر أخذ يتعرج في البعد بين التلال، وفوق أكمة خضراء كثيفة على إحدى هذه التلال، ارتفعت سقيفة خضراء لمنزل حجري ضخم، وعلى التل الآخر انتصبت كنيسة ذات خمسة أبراج وبرج أجراس من الطراز القديم، ومن حولها تناثرت بيوت الفلاحين بحدائقها وآبارها. وعرف دوبروفسكي هذه الأماكن، وتذكر أنه على ذلك التل كان يلعب مع ماشا ترويكورفا الصغيرة، التي كانت تصغره بعامين، وتبشر في ذلك الوقت بحسناء. وأراد أن يسأل أنطون عنها، لكن شعورًا بالخجل منعه من ذلك.

وعندما اقترب من منزل رب الضيعة، رأى ثوبًا أبيض يلوح بين أشجار الحديقة. وفي هذه اللحظة ألهب أنطون ظهر الجياد، وقد استبد به الغرور، ذلك الشعور المشترك بين حوذية القرى وسائقي العربات في المدن، وانطلق بأقصى سرعة فعبر الجسر مارًّا بجوار القرية. وبعد أن خلَّفا القرية وراءهما صعدا مرتفعًا، فرأى فلاديمير غيضة أشجار البتولا، وفي الناحية اليسرى في مكان مكشوف منزلًا رماديًّا ذا سقف أحمر، فدق قلبه بشدة. لقد رأى أمامه كيستينيوفكا ومنزل أبيه المتواضع.

وبعد عشر دقائق دلفوا إلى فناء المنزل، فأخذ ينظر حوله بتأثر لا يوصف، فمنذ اثنتي عشرة سنة لم يرَ مسقط رأسه. لقد نمت شجيرات البتولا التي شهد غرسها بجوار السور، وأصبحت الآن أشجارًا طويلة وارفة. أما الفناء الذي كانت تزينه في وقت ما ثلاثة أحواض من الزهور، يتخللها طريق نُظِّف بعناية، فقد تحول الآن إلى مرج لم تُجتث حشائشه، وأخذ يرعى فيه حصان مقيد. وشرعت الكلاب تنبح، لكنها صمتت عندما رأت أنطون، وأخذت تهز ذيولها المشعثة. وخرج الخدم والحاشية من منازلهم وأحاطوا بالسيد الشاب معربين عن فرحتهم بصخب. وبصعوبة تمكن من شق طريقه وسط زحامهم، وهرول إلى السلاملك المتداعي. وفي المدخل قابلته يجورفنا وهي تبكي، ثم عانقت ربيبها.

– مرحبًا، مرحبًا يا دادة — ردد هذه التحية وهو يضم العجوز الطيبة إلى صدره — ماذا حدث لأبي؟ أين هو؟ وكيف حاله؟

وفي هذه اللحظة، دلف إلى الصالة شيخ طويل القامة، يخطو متحاملًا، شاحبًا، هزيلًا، في رداء منزلي وطاقية.

وقال بصوت ضعيف: مرحبًا يا فولوديا.[1]

وعانق فلاديمير أباه بحرارة.

وهزت فرحة اللقاء المريض بشدة، فأصابه الضعف وخارت ساقاه، وكاد يسقط لولا أن تلقاه ابنه على يديه.

وقالت له يجورفنا: لماذا نهضت من الفراش؟ إن ساقيه لا تحملانه، ومع ذلك يندفع إلى حيث يندفع الناس.

وحملوا العجوز إلى غرفة نومه، وحاول أن يتحدث إلى ابنه، غير أن أفكاره اختلطت في رأسه، وفقدت كلماته كل رابطة فلزم الصمت، ثم استغرق في النوم. وذهل فلاديمير لحالته فقرر أن ينام معه في الغرفة، وطلب أن يتركوه مع أبيه على انفراد. وأذعن الخدم لطلبه، وعندئذٍ انتبهوا إلى جريشا فقادوه إلى غرفة الخدم، حيث أكرموه على طريقة أهل الريف وهم يبدون كل أنواع السرور، ويرهقونه بالأسئلة والتحيات.

[1] فالوديا هو اسم التدليل من فلاديمير. (المترجم)

الفصل الرابع

حيث كانت الوليمة حافلة كان يرقد التابوت.

«درجافين»

بعد عدة أيام من وصوله أراد دوبروفسكي الابن أن يهتم بالأعمال، غير أن أباه لم يكن في حالة تسمح بتقديم التفسيرات اللازمة، كذلك لم يكن لدى أندريه جافريلوفيتش وكيل أعمال. وعندما كان فلاديمير يفتش أوراق أبيه وجد رسالة المحلِّف الأولى ومسودة الرد عليها، ولم يستطع أن يصل منها إلى مفهوم واضح عن القضية، فقرر أن ينتظر ما تأتي به الأيام، معتمدًا على عدالة القضية ذاتها.

وفي الوقت نفسه، أخذت صحة أندريه جافريلوفيتش تسير من سيئ إلى أسوأ، واستشف فلاديمير النهاية القريبة فلم يبارح العجوز الذي تحول إلى طفل صغير.

وانتهت الفترة القانونية ولم يُقدَّم الاستئناف، فأصبحت كيستينيوفكا ملكًا لترويكورف. وجاء إليه شاباشكين يقدم التحية والتهنئة، ورجاه أن يحدد الوقت الذي يناسب معاليه للقيام بإجراءات استلام الضيعة الجديدة بنفسه أو بواسطة من يسمح معاليه بتوكيله عنه. وارتبك كيريلا بتروفيتش، فلم يكن بطبعه مغرضًا، لكنه انساق وراء رغبة الانتقام، فأخذ ضميره يؤنبه. كان يعرف حالة غريمه ورفيق صباه القديم، فلم يُدخل النصر السرور على قلبه. وصوَّب إلى شاباشكين نظرة رهيبة محاولًا أن يجد علَّة ليسبَّه، فلما لم يجد العلَّة المناسبة قال بغضب: اغرب عن وجهي، فلا وقت عندي لك.

ورأى شاباشكين أنه غاضب فانحنى وأسرع بالانصراف. أما كيريلا بتروفيتش، فبعد أن أصبح وحده، أخذ يروح ويجيء وهو يصفر لحن: زمجر يا رعد النصر، الأمر الذي كان يدل دائمًا على أنه يعاني من اضطراب غير عادي في الأفكار.

وأخيرًا أمر أن تسرج الجياد إلى عربة خفيفة، وارتدى ملابس ثقيلة (كان ذلك في أواخر سبتمبر) وغادر المنزل يقود العربة بنفسه.

وسرعان ما لاح أمام ناظريه منزل أندريه جافريلوفيتش ففاضت نفسه بالمشاعر المتناقضة. لقد طغى حب الانتقام وشهوة السلطة إلى حدٍّ ما على المشاعر النبيلة، ولكن الأخيرة انتصرت في النهاية، فقرر أن يصالح جاره القديم ويقضي على آثار العداوة بينهما بأن يعيد إليه ممتلكاته. واطمأنت نفسه لهذا الغرض النبيل، فانطلق بالجياد خببًا نحو ضيعة جاره، ودخل مباشرة إلى فناء المنزل.

في هذه اللحظة كان المريض يجلس إلى النافذة في غرفة نومه، وعرف في القادم كيريلا بتروفيتش فارتسم على وجهه اضطراب فظيع، وحلَّت حُمرة قانية محل الشحوب العادي في وجنتيه، ولمعت عيناه وتفوه بألفاظ غير مفهومة. ورفع ابنه رأسه عن دفاتر الحسابات والمالية فراعته حالة أبيه. كان المريض يشير بإصبعه نحو الفناء وقد استبدَّ به الرعب والغضب. وجمع أطراف ردائه على عجل وأراد أن ينهض من كرسيه، فنهض قليلًا ... ثم سقط فجأة ... وأسرع ابنه إليه فوجده ممددًا فاقد الوعي والتنفس. لقد أصابه الشلل.

وصرخ فلاديمير: أسرعوا، أسرعوا، استدعوا طبيبًا من المدينة.

وقال الخادم الذي دخل الغرفة: كيريلا بتروفيتش يريد مقابلتكم.

ونظر فلاديمير إلى الخادم نظرة رهيبة وقال: قل لكيريلا بتروفيتش أن يغور من هنا حالًا قبل أن آمر بطرده ... هيا.

وأسرع الخادم مسرورًا لتنفيذ أوامر سيده، أما يجورفنا، فقد أشاحت بيديها ذعرًا، وقالت بصوت يائس: يا سيدنا ... ستقضي على نفسك! سيدمرنا كيريلا بتروفيتش.

فقال فلاديمير بانفعال: اسكتي يا دادة. ابعثي أنطون إلى المدينة ليأتي بالطبيب.

وخرجت يجورفنا. لم يكن هناك أحد في المدخل، فقد خفوا جميعًا إلى الفناء ليروا كيريلا بتروفيتش. وخرجت هي إلى السلاملك فسمعت رد الخادم، الذي كان يتحدث باسم السيد الشاب وأصغى كيريلا بتروفيتش إليه وهو جالس في العربة، واربدت سحنته حتى غدت أشد سوادًا من الليل، وابتسم بازدراء وهو يصوب إلى الخدم نظرة وعيد، ثم سار بالعربة على مهل بجوار الفناء، ونظر إلى النافذة التي كان يجلس إليها منذ لحظة أندريه جافريلوفيتش وحيث لم يعُد هناك الآن، وظلت المربية واقفة على السلاملك وقد نسيت أوامر السيد. وأخذ الخدم يناقشون الحادث بصخب. وفجأة ظهر فلاديمير بينهم وقال باقتضاب: لا داعي للطبيب ... أبي توفي.

وعمَّ الاضطراب، وانطلق الناس إلى غرفة السيد العجوز، حيث كان ممددًا في الكرسي الذي وضعه فيه فلاديمير. وتدلت يده اليمنى حتى لامست الأرض، وسقط رأسه على صدره. لم تكن هناك علامة على الحياة في هذا الجسد الذي لم يبرد بعد، ولكنه كان قد تشوه بفعل الموت. وصرخت يجورفنا، وأحاط الخدم بالجسد الذي تُرك لرعايتهم، فغسلوه وألبسوه حلته العسكرية التي كانت قد خيطت في عام ١٧٩٧م، ثم وضعوه على نفس الطاولة التي كانوا يعدونها لسيدهم سنوات طوال.

الفصل الخامس

تم الدفن في اليوم الثالث، وتمدد جسد العجوز المسكين على الطاولة ملفوفًا في الكفن، تحيط به الشموع. واكتظت غرفة الطاولة بالخدم، الذين كانوا يستعدون للخروج به. وحمل فلاديمير التابوت بمساعدة ثلاثة من الخدم، وتقدمهم الراهب يصحبه السادن وهو ينشد ألحانًا جنائزية. وعبر سيد كيستينيوفكا عتبة داره لآخر مرة. ثم ساروا بالتابوت عبر الغيضة التي تقع خلفها الكنيسة. كان النهار صحوًا وباردًا، وتساقطت الأوراق الخريفية من الأشجار.

وعندما خرجوا من الغيضة شاهدوا كنيسة كيستينيوفكا الخشبية والمقابر التي تظللها أشجار الزيزفون العجوز. هناك رقد جسد أم فلاديمير، وهناك بالقرب من قبرها أُعدت مسبقًا حفرة حديثة.

كانت الكنيسة غاصة بفلاحي كيستينيوفكا، الذين جاءُوا ليودِّعوا سيدهم الوداع الأخير.

ووقف دوبروفسكي الشاب بجوار جوقة المرتلين. لم يبكِ ولم يصلِّ، غير أن وجهه كان فظيعًا.

وانتهت الطقوس الحزينة، فكان فلاديمير أول من تقدم لوداع الجسد، ومن خلفه سار الخدم كلهم. ثم جاءوا بغطاء التابوت ودقوه بالمسامير. وانتحبت النسوة بصوت عالٍ، ومسح الرجال دموعهم بقبضات أيديهم من حين إلى آخر. ثم حمل فلاديمير والخدم الثلاثة التابوت إلى المقابر يصاحبهم أهل القرية كلهم. وأنزلوا التابوت إلى القبر، ثم ألقى فيه كل فرد من الحاضرين قبضة من رمل. ثم هالوا التراب في الحفرة فردموها وانحنوا أمامها، ثم تفرقوا. وانصرف فلاديمير بسرعة قبل الجميع، ثم اختفى في غيضة كيستينيوفكا.

ووجهت يجورفنا الدعوة باسمه إلى الراهب وجميع سدنة الكنيسة إلى وليمة المأتم، معلنة أن السيد الشاب لن يحضرها. وهكذا توجَّه الأب أنطون وزوجته فيدوتوفنا والسادن إلى منزل السيد سيرًا على الأقدام، وهم يتحدثون مع يجورفنا عن حسنات المرحوم، وعما ينتظر وريثه (كان وصول ترويكورف، والاستقبال الذي استُقبل به معروفًا لدى أهل الناحية كلهم، وتوقع الساسة المحليون نتائج هامة لذلك الاستقبال).

قالت زوجة الراهب: ليكن ما يكون. ولكن من المؤسف ألَّا يصبح فلاديمير أندرييفيتش سيدنا. إنه رائع بلا جدال.

وقاطعتها يجورفنا: ومن غيره يمكن أن يصبح سيدنا. عبثًا يتوعد كيريلا بتروفيتش، فلن يجد أمامه جبانًا … إن صقري يعرف كيف يدافع عن نفسه. وإن شاء الله لن يتخلى عنه رعاته … كم هو متعجرف كيريلا بتروفيتش، ولكن تراه ثنى ذيله بين فخذيه عندما صاح فيه جريشا ابني: اغرب أيها الكلب العجوز … ارحل من هنا!

وقال السادن: أوه يا يجورفنا … كيف طاوعه لسانه أن يقول ذلك! إني مستعد، على ما أعتقد، أن أشتم أسقفًا من أن أصوب نظرة غضب إلى كيريلا بتروفيتش، فما أن يراه المرء حتى يدفعه الخوف إلى الانحناء، والظهر يتقوس من تلقاء نفسه.

قال الراهب: باطل الأباطيل! وكيريلا بتروفيتش سيحل أجله أيضًا كما حدث الآن لأندريه جافريلوفيتش، والفرق الوحيد أن جنازته ستكون أفخم والمدعوين إلى الوليمة أكثر … ولكن أليس كل ذلك سيان عند الرب؟!

– آه يا أبتاه، لقد أردنا نحن أيضًا أن ندعو كل الناحية، لكن فلاديمير أندرييفيتش لم يشأ. الخير لدينا كثير، وعندنا ما نقدمه للضيوف، ولكن ما باليد حيلة. وما دام ليس هناك ضيوف، فهيا على الأقل أطعمكم أنتم يا ضيوفنا الأعزاء.

هذه الوعود الرقيقة، والأمل في وليمة حافلة، حثت خطى المتحدثين، فوصلوا بسلام إلى منزل السيد، حيث وجدوا الطاولة معدَّة، والفودكا موضوعة.

وفي ذلك الوقت، توغل فلاديمير في قلب الغابة، محاولًا عن طريق الحركة والتعب إخماد زن قلبه. كان يسير على غير هدًى، وأخذت الأغصان كل لحظة تحتك به وتخدشه، وقدماه تغوصان باستمرار في المستنقع، لكنه لم يعِر أي شيء انتباهًا. وأخيرًا وصل إلى وهدة صغيرة تحوطها الغابة من جميع الجهات. وكان هناك غدير يتلوى في صمت بجوار الأشجار التي كاد أن يعريها الخريف. وتوقف فلاديمير، ثم جلس على العشب البارد، وأخذت الأفكار تترى في نفسه، كل فكرة أشد سوادًا من سابقتها، وأحس بوحدته إحساسًا ممضًّا، وبدا له المستقبل ملفعًا بالغيوم القاتمة، وعداوة ترويكورف تنبئ بمصائب جديدة،

ومن الجائز أن تنتقل ملكيته الضئيلة إلى أيدٍ غريبة، وعندئذٍ لن ينتظره إلَّا الفقر. وجلس طويلًا بلا حراك في نفس المكان متأملًا جريان الغدير الهادئ، الذي كان يجرف معه عدة أوراق ذابلة، وبدا له بوضوح أن هذا صورة صادقة للحياة، صورة جد عادية. وأخيرًا لاحظ أن الغسق بدأ يهبط، فنهض، ومضى يبحث عن الطريق إلى المنزل، لكنه ضل طويلًا في الغابة المجهولة قبل أن يجد في النهاية الدرب الذي قاده مباشرة إلى بوابة بيته.

وفي طريقه قابله الراهب مع بقية السدنة. وجالت بخاطره فكرة عن نذير الشؤم، فأسرع لا إراديًّا يتنحى عن الطريق واختبأ خلف الأشجار. ولم يلحظوه فمضوا يتحدثون بحرارة وهم يمرون بجواره. وقال الراهب لزوجته: تجنبي الشر واصنعي الخير، لا حاجة لبقائنا هنا. مهما كانت النهاية، فهذا الأمر لا يخصك.

وردت الزوجة بشيء ما، ولكن فلاديمير لم يستطع أن يسمع.

وعندما اقترب رأى جمعًا غفيرًا من الفلاحين والخدم محتشدين في الفناء. وعلى البعد سمع فلاديمير ضجة ولغطًا غير عاديين. وكانت هناك عربتان من ذوات الخيول الثلاثة تقفان إلى جوار الحظيرة. وعلى السلاملك وقف عدة أشخاص غرباء في ملابس رسمية، يتحدثون فيما يبدو عن شيء ما.

وسأل فلاديمير بغضب أنطون الذي ركض نحوه: ما معنى هذا؟ من هؤلاء، وماذا يريدون؟

فأجاب العجوز وهو يلتقط أنفاسه: آه يا سيدي فلاديمير أندرييفيتش ... المحكمة جاءت، سيسلموننا لترويكورف ... يريدون انتزاعنا من رحمتك!

ونكس فلاديمير رأسه، وأحاط الناس بسيدهم البائس، وصاحوا وهم يقبلون يديه: يا مولانا، لا نريد سيدًا آخر غيرك. مُر يا مولانا أن نفتك بالمحكمة وسنفعل ... سنموت ولكنَّا لن نسلِّم.

ونظر فلاديمير إليهم وأحس بمشاعر غريبة تثور في نفسه فقال لهم: احتفظوا بهدوئكم، وسأتحدث أنا إلى الموظفين.

وصاحت به أصوات من الجمع: تحدث يا مولانا، ووبِّخ هؤلاء الملاعين.

واقترب فلاديمير من الموظفين. كان شاباشكين يقف مرتديًا قبعته، واضعًا يديه في خاصرته، وينظر حوله بكبرياء، أما رئيس الشرطة، وهو شخص طويل القامة، بدين، في حوالي الخمسين من عمره، أحمر الوجه، ذو شوارب، فعندما رأى دوبروفسكي يقترب صرخ قائلًا بصوت أبح: وهكذا فإنني أكرر لكم ما سبق أن قلته: طبقًا لقرار محكمة الناحية

أصبحتم منذ الآن ملكًا لكيريلا بتروفيتش ترويكورف، والذي يمثله هنا السيد شاباشكين. أطيعوه في كل ما يأمركم به، أما أنتن أيتها النسوة فأحببنه واحترمنه؛ إذ إنه من كبار المغرمين بجنسكن.

وقهقه الرئيس لمزحته هذه البارعة، وتبعه شاباشكين وبقية الموظفين.

أما فلاديمير، فكان يغلي من الغضب، وسأل الرئيس المرح، وهو يتصنع البرود: هلا أخبرتني ما معنى هذا؟

فأجاب الضابط المتعجرف: هذا يعني أننا جئنا لتسليم الضيعة لكيريلا بتروفيتش ترويكورف، ونرجو من الآخرين أن يغربوا عن هنا بالإحسان والمعروف.

– ولكن كان بوسعكم، فيما أعتقد، أن تتوجهوا إليَّ قبل أن تتوجهوا إلى فلاحيَّ، وتعلنوا الإقطاعي عن انتزاع ملكه.

وقال شاباشكين وهو يوجه إليه نظرة صلف: ومَن تكون أنت؟ لقد توفي الإقطاعي السابق أندريه جافريلوفيتش ابن دوبروفسكي، أما أنت فنحن لا نعرفك، ولا نريد حتى أن نعرفك.

وقال صوت من الجمع: هذا سيدنا الشاب فلاديمير أندرييفيتش يا صاحب السعادة.

فقال الرئيس متوعدًا: من ذا الذي جرؤ على فتح فمه؟ أي سيد؟ أي فلاديمير أندرييفيتش؟ سيدكم هو كيريلا بتروفيتش ترويكورف، أتسمعون يا أغبياء؟

– هذا لن يكون!

– إن هذا تمرد — صرخ الرئيس — تعالَ هنا يا عمدة!

وتقدم العمدة إلى الأمام.

– اقبض الآن فورًا على من جرؤ على معارضتي وسوف أُريه!

وتوجه العمدة إلى الجمع يسأله عمن تحدَّث، ولكن أحدًا لم يتكلم، ثم سرعان ما ترددت همهمة إلى الصفوف الخلفية وأخذت تعلو، ثم تحولت في لحظة إلى صراخ مرعب، وخفض الرئيس صوته محاولًا تهدئتهم.

وصرخ رجال الحاشية: دعوكم منه، يا فتيان هيا اهجموا عليهم.

وتقدم الجمع كله.

وأسرع شاباشكين وبقية الأعضاء إلى المدخل وأغلقوا الباب خلفهم.

وصرخ الصوت نفسه: هيا نقيدهم يا فتيان.

وبدأ الجمع يتقدم.

– قفوا — صرخ دوبروفسكي — ماذا تفعلون أيها الحمقى؟ إنكم تلقون بأنفسكم وبي إلى الهلاك. ليذهب كلٌّ إلى بيته ودعوني لشأني. لا تخافوا، إن القيصر رحيم، وسوف أتشفَّع إليه، ولن يتركنا للهوان فنحن جميعًا أبناؤه، ولكن كيف يدافع عنكم إذا ما أخذتم تتمردون وتثورون.

وأتى حديث دوبروفسكي الشاب، وصوته الرنان، وطلعته المهيبة بالأثر المرجو، فهدأ الناس ثم تفرَّقوا، وخلا الفناء، بينما جلس الموظفون في المنزل. وأخيرًا فتح شاباشكين الباب خلسة وخرج إلى السلاملك، وأخذ يشكر دوبروفسكي وهو ينحني بذلة، على حمايته الرحيمة لهم.

وأصغى فلاديمير إليه باحتقار ولم يقُل شيئًا.

وواصل المحلف قائلًا: لقد قررنا أن نبيت هنا إذا سمحتم، لأن الظلام قد هبط، وربما يهجم علينا فلاحوكم في الطريق. أرجو أن تتفضَّل فتأمر بأن يفرشوا لنا ولو قشًّا في غرفة الاستقبال، وما أن يلوح النور حتى نعود من حيث أتينا.

وأجاب دوبروفسكي بجفاء: افعلوا ما يحلو لكم، فلم أعد السيد هنا.

قال هذا واتجه إلى غرفة والده وأغلق خلفه الباب.

الفصل السادس

«وهكذا فقد انتهى كل شيء — قال لنفسه — في الصباح كان لا يزال لديَّ ركن آوي إليه وكسرة خبز، أما غدًا فعليَّ أن أترك المنزل الذي فيه ولدت، وفيه مات أبي، أتركه لمن تسبب في وفاته وفقري.» وتوقفت نظرته وجمدت على صورة أمه. لقد رسمها الفنان مرتكزة إلى حاجز، في ثوب صباحي أبيض ووردة حمراء في شعرها. «وهذه الصورة أيضًا ستصبح ملكًا لعدو أسرتي — فكَّر فلاديمير — وسوف يلقي بها في المخزن مع الكراسي المحطمة، أو يعلقها في المدخل لتكون مادة لسخريات وتعليقات مدربي كلابه، أما غرفة نومها ... الغرفة التي مات فيها والدي، فسيشغلها وكيل أعماله، أو حريمه. كلا! كلا! لن أدعه يمتلك هذا المنزل الحزين الذي يطردني منه.» وصرَّ فلاديمير على أسنانه، فقد انبثقت في رأسه أفكار رهيبة. كانت تصل إلى سمعه أصوات الموظفين الذين كانوا يتصرفون كأسياد، تارة يطلبون هذا الشيء، وتارة يطلبون ذاك، مشوشين على أفكاره الحزينة بصورة كريهة. ثم أخيرًا هدأ كل شيء.

فتح فلاديمير الدواليب الصغيرة وانشغل بالتنقيب في أوراق المرحوم والده. كان معظمها عبارة عن أوراق حسابات ومراسلات لشتى الأغراض، فمزقها فلاديمير دون أن يقرأها، ثم عثر بينها على حافظة كُتب عليها: رسائل زوجتي، فانكب عليها فلاديمير وقد هاجت مشاعره هياجًا شديدًا. كانت مكتوبة في أيام الحملة التركية ومعنونة من كيستينيوفكا إلى الجيش. وقد وصفت له فيها حياتها الخاوية وأعمالها المنزلية، وشكت من الفراق ودعته أن يعود إلى المنزل، إلى أحضان شريكة حياته الطيبة، وفي إحداها عبَّرت عن قلقها بخصوص صحة الصغير فلاديمير، وفي رسالة أخرى أظهرت فرحتها بمواهبه المبكرة، وتنبأت له بمستقبل باهر سعيد. وانهمك فلاديمير في القراءة ناسيًا كل شيء في العالم، وغاب إلى دنيا السعادة العائلية، دون أن يلحظ مرور الوقت، حتى دقت ساعة

الحائط معلنة الحادية عشرة، فوضع فلاديمير الرسائل في جيبه، وتناول الشمعة وخرج من الغرفة. كان الموظفون نائمين في الصالة على الأرض. وعلى المنضدة اصطفت الأكواب الفارغة بعد شرابهم، بينما عبقت الغرفة برائحة الروم الشديدة، ومرَّ فلاديمير بجوارهم باشمئزاز متوجهًا إلى المدخل. كانت الأبواب مغلقة، ولم يجد المفتاح فعاد إلى الصالة حيث وجده على الطاولة. فتح فلاديمير الباب فاصطدم بشخص منزوٍ في الركن، لمع في يديه فأس، وعندما قرَّب فلاديمير الشمعة إلى وجهه عرف فيه الحداد أرخيب. فسأله: ما الذي جاء بك إلى هنا؟

فأجاب أرخيب هامسًا: آه! أهو أنت يا فلاديمير أندرييفيتش!

رحماك يا رب! حسنًا إنك كنت حاملًا شمعة.

وأخذ فلاديمير ينظر إليه بذهول. ثم سأله: لماذا تختبئ هنا؟

فأجاب أرخيب بصوت خفيض متلعثمًا: لقد أردت … لقد جئت … لأتأكد هل الجميع هنا أم لا.

– ولماذا تحمل فأسًا؟

– لماذا الفأس؟ وكيف يمكن أن يسير الإنسان الآن دون فأس.

هؤلاء الموظفون قوم مشاكسون … وربما حدث شيء.

– إنك ثمل … دع عنك الفأس، واذهب لتأخذ قسطك من النوم.

– أنا ثمل؟ يا سيدي فلاديمير أندرييفيتش … يشهد الله إنني لم أضع قطرة في فمي … وهل يخطر الشراب على بالي الآن … وهل يمكن أن نصدق أن هؤلاء الموظفين يريدون أخذنا، ويطردون أسيادنا من بيوتهم … انظر كيف يشخرون، هؤلاء الملاعين … آه لو ضربتهم جميعًا ضربة واحدة … ثم لا دليل ولا أثر.

وقطب دوبروفسكي حاجبيه، وصمت قليلًا، ثم قال: اسمع يا أرخيب … إنَّ ما فكرت فيه لا يصلح، فليس الذنب ذنب الموظفين. هيا أضئ المصباح واتبعني.

وتناول أرخيب الشمعة من يد سيده، وبحث عن المصباح حتى وجده خلف الفرن فأشعله، ثم هبط كلاهما من السلاملك بهدوء، وسارا بحذاء الفناء. فدق الحارس على اللوح الحديدي للإنذار ونبحت الكلاب.

وسأل دوبروفسكي: من يقوم بالحراسة؟

فأجابه صوت رفيع: نحن يا سيدي … فاسيليسا ولوكيريا.

– انصرفا — قال دوبروفسكي — لسنا بحاجة إليكما.

– خلاص. قال أرخيب.

– شكرًا يا سيدي. ردت المرأتان وانصرفتا توًّا إلى منزليهما.

وتابع دوبروفسكي سيره، واقترب منه شخصان وناداياه، فعرف دوبروفسكي صوت أنطون وجريشا.

سألهما دوبروفسكي: لماذا أنتما مستيقظان؟

فأجاب أنطون: وهل يمكننا أن ننام؟ هل قُدِّر لنا أن نعيش حتى نرى هذا؟ من كان يظن …

قاطعه دوبروفسكي: صه … أين يجورفنا؟

– في بيت السيد، في غرفتها. أجاب جريشا.

– اذهب وأتِ بها، وأخرج جميع أتباعنا من المنزل بحيث لا يبقى هناك أحد … إلَّا الموظفون، أما أنت يا أنطون فجهز العربة.

انصرف جريشا وعاد بعد دقيقة مع أمه التي لم تخلع ملابسها هذه الليلة، ولم يغمض جفن أحد في المنزل باستثناء الموظفين.

وسأل دوبروفسكي: هل الجميع هنا؟ ألم يبقَ أحد في المنزل؟

فأجاب جريشا: لم يبقَ سوى الموظفين.

فأمر دوبروفسكي: أحضروا دريسًا أو قشًّا.

فأسرعوا إلى الإصطبل وعادوا يحملون دريسًا.

– ضعوه تحت السلاملك. هكذا … والآن إليَّ بالنار يا فتيان!

وفتح أرخيب المصباح فأشعل دوبروفسكي شظية خشبية، ثم قال لأرخيب: انتظر، يبدو أنني في عجلتي أغلقت أبواب المدخل. اذهب بسرعة وافتحها.

وهرول أرخيب نحو المدخل. كانت الأبواب غير مغلقة، فأغلقها أرخيب بالمفتاح وهو يهمس: يطلب مني أن أفتحها. هذا لن يكون! ثم عاد إلى دوبروفسكي.

وقرَّب دوبروفسكي الشظية من الدريس فاشتعل، وارتفع اللهيب فأضاء الفناء كله.

وصرخت يجورفنا بتوسل: آه يا فلاديمير أندرييفيتش، ما الذي تفعله؟

فقال دوبروفسكي: اسكتي. حسنًا يا أولادي، وداعًا، سأرحل إلى حيث يشاء الله. أتمنى لكم السعادة مع سيدكم الجديد.

فأجاب الواقفون: يا سيدنا ومولانا، نموت ولا نتركك، سنأتي معك.

وجاءوا بالعربة فجلس فيها دوبروفسكي وجريشا، وحدد لهم مكان اللقاء في غيضة كيستينيوفكا، وضرب أنطون الخيول، فانطلقت العربة مغادرة الفناء.

وهبت الريح، وفي لحظة كان اللهب قد أحاط بالمنزل، وتصاعد دخان أحمر فوق السقف، وقرقع زجاج النوافذ ثم انهار، وأخذت القوائم المشتعلة تتداعى، وترددت صرخات وعويل مستجير: «إننا نحترق، النجدة! النجدة!»

قال أرخيب: هذا لن يكون! وابتسم ابتسامة حاقدة وهو ينظر إلى الحريق.

وقالت له يجورفنا: أرخيب، أنقذ هؤلاء الملاعين، وستنال ثوابًا من الله.

فأجاب الحداد: هذا لن يكون!

وفي هذه اللحظة، ظهر الموظفون أمام النافذة وهم يحاولون كسر الإطار المزدوج. ولكن السقف انهار محدثًا ضجيجًا، ثم سكن العويل.

وسرعان ما تجمَّع الناس في الفناء، وأسرعت النسوة ينقذن سقط متاعهن، وأخذ الأطفال يقفزون متلذذين بمشهد الحريق، وتطاير الشرر كعاصفة نارية، واشتعلت بيوت الفلاحين.

وقال أرخيب: كل شيء على ما يرام الآن. انظروا كيف تحترق؟ لا بد أن المشهد يبدو رائعًا لو نظرت إليه من ضيعة بكروفسكويه.

وفي هذه اللحظة جذبت انتباهه ظاهرة أخرى، فقد ركضت قطة على سطح الحظيرة المشتعلة، وهي لا تدري إلى أين تقفز، فقد أحاط بها اللهب من كل جانب، وأخذ الحيوان المسكين يموء بتوسل طالبًا النجدة، بينما ضجَّ الأطفال بالضحك وهم يشهدون يأسها.

– ما الذي يضحككم أيها الملاعين — قال لهم الحداد بغضب — ألا تخشون ربكم؟ هذه دابة من مخلوقات الله تموت وأنتم تفرحون، يا حمقى!

ثم وضع سلمًا على السقيفة المشتعلة، وصعد إلى القطة التي فهمت غرضه فتعلقت بكمِّه، وقد ارتسم على وجهها مظهر العرفان المقرون باللهفة، وهبط الحداد بغنيمته، وقد كاد يحترق.

– والآن وداعًا يا فتيان — قال مخاطبًا الحاشية المرتبكة — لم يعد لي عمل هنا، وداعًا واذكروني بالخير.

ورحل الحداد، واستمر الحريق مضطرمًا بعض الوقت، ثم أخيرًا هدأ. وأخذت أكوام من الفحم المتأجج تشتعل دون لهيب في ظلام الليل، ومن حولها كان يتجول أهل كيستينيوفكا الذين احترقت ديارهم.

الفصل السابع

في اليوم التالي، كان خبر الحريق قد ذاع في الناحية كلها. وكان كل واحد يتحدث عنه واضعًا شتى الافتراضات والظنون. فالبعض يؤكد أن أتباع دوبروفسكي شربوا حتى ثملوا في وليمة التأبين فاحترق المنزل نتيجة إهمالهم وعدم حرصهم، واتهم البعض الآخر الموظفين الذين سكروا محتفلين بالمكان الجديد، بينما أعلن الكثيرون أن دوبروفسكي نفسه احترق أيضًا مع من في المنزل من هيئة المحكمة والحاشية. وهناك من فطن إلى الحقيقة وأكد أن سبب هذه الكارثة الفظيعة هو دوبروفسكي نفسه، دفعه إلى ذلك الحقد واليأس. ووصل ترويكورف في اليوم التالي مباشرة إلى مكان الحريق وأجرى التحقيق بنفسه. وقد اتضح أن رئيس الشرطة والمحلِّف والوكيل المفوض والكاتب، وكذلك فلاديمير دوبروفسكي والمربية يجورفنا والخادم جريشا والحوذي أنطون والحداد أرخيب قد فُقدوا ولا يُعرف لهم مكان ... وأدلى جميع أفراد الحاشية بما يفيد أن الموظفين احترقوا عندما انهار السقف، وقد أمكن استخراج عظامهم المحترقة. أما الفلاحتان فاسيليسا ولوكيريا فقد قالتا إنهما شاهدتا دوبروفسكي والحداد أرخيب قبل الحريق بعدة دقائق. وقد اتفق الجميع على أن الحداد أرخيب على قيد الحياة، ويحتمل أن يكون الفاعل الأساسي، إن لم يكن المسبب الوحيد للحريق. واتجهت إلى دوبروفسكي شكوك قوية. وأرسل ترويكورف إلى المحافظ وصفًا تفصيليًّا بما حدث، وفُتحت قضية جديدة.

وسرعان ما جاءت الأخبار بوقود جديد للفضول والإشاعات. ففي ناحية «...» ظهر قُطَّاع طريق فنشروا الرعب في جميع الضواحي المجاورة، واتضح أن الإجراءات التي اتخذتها الحكومة ضدهم لم تكن كافية. وتوالت حوادث السطو، وكانت كل حادثة تفوق سابقتها. ولم يعد هناك أمن لا على الطرق ولا في القرى. وكانت عدة عربات من ذوات الثلاثة خيول، مملوءة بقطَّاع الطريق تتجول في وضح النهار في جميع أنحاء المحافظة،

فتعترض طريق المسافرين والبريد وتحل بالقرى؛ فتنهب منازل الإقطاعيين، ثم تشعل فيها النار. واشتهر زعيم العصابة بذكائه وشجاعته وشهامته، وحكوا عنه العجائب. وكان اسم دوبروفسكي على جميع الشفاه، والكل متأكدون أنه هو ولا أحد غيره زعيم الأشرار الشجعان. ولكن الذي أدهش الجميع شيء واحد: وهو إن ممتلكات ترويكورف لم تمتد إليها يد العبث. فلم يسطُ قطَّاع على حظيرة واحدة من حظائره، ولم ينهبوا عربة من عرباته. وبعنجهيته المعهودة عزا ترويكورف هذا الاستثناء إلى الخوف الذي استطاع أن ينشره في أرجاء المحافظة، وكذلك إلى الشرطة اليقظة التي نظمها في قُراه. وفي البداية ضحك الجيران فيما بينهم من عنجهيته، وتوقعوا أن يحل الضيوف الثقال بين يوم وآخر ببكروفسكويه التي سيجدون فيها ما يشبع شهواتهم. غير أنهم اضطروا إلى أن يوافقوه ويعترفوا بأن قطَّاع الطرق أيضًا أحبوه باحترام غير مفهوم ... وانتشى ترويكورف، وفي كل مرة يسمع عن حادثة سطو جديدة قام بها دوبروفسكي كان يكيل السخريات للمحافظ وضباط الشرطة وقادة السرايا، الذين كان دوبروفسكي يفلت منهم سليمًا في كل مرة.

ثم حلَّ أول أكتوبر؛ عيد قديس كنيسة ترويكورف ... ولكن قبل أن نبدأ في وصف هذا الاحتفال والأحداث التي تلته، يجب علينا أن نعرِّف القارئ بالوجوه الجديدة عليه، أو التي ألمحنا إليها في مطلع قصتنا هذه.

الفصل الثامن

لا شك أن القارئ قد فطن إلى أن ابنة كيريلا بتروفيتش التي لم نُشِر إليها إلَّا ببضع كلمات، هي بطلة قصتنا. وفي العهد الذي نقصُّ عنه كانت في السابعة عشرة من عمرها وجمالها في أوج ازدهاره. وكان والدها يحبها لدرجة الجنون، ولكنه كان يعاملها بطبعه المعهود، فتارةً يحاول أن يلبي أتفه رغباتها، وتارةً أخرى يرهبها بمعاملته الصارمة، بل والقاسية أحيانًا. وبالرغم من أنه كان واثقًا من تعلقها به، إلَّا أنه لم يوفَّق أبدًا في كسب ثقتها، فقد تعوَّدت أن تخفي عنه مشاعرها وأفكارها؛ لأنها لم تكن تعرف مطلقًا على وجه التحديد كيف سيتقبلها. ولم يكن لديها صاحبات فشبَّت في جو من الوحدة. ونادرًا ما كانت زوجات وبنات الجيران يزرن كيريلا بتروفيتش، الذي كانت أحاديثه وملاهيه العادية تتطلب صحبة الرجال لا النساء. وقليلًا ما كانت حسناؤنا تظهر وسط ضيوف كيريلا بتروفيتش. وكان تحت تصرفها مكتبة ضخمة، معظم كتبها من مؤلفات الكُتَّاب الفرنسيين في القرن الثامن عشر. ولم يستطع والدها الذي لم يقرأ قط شيئًا عدا كتاب «الطاهية المثالية» أن يوجهها في اختيار الكتب، لذا كان من الطبيعي بالنسبة إلى ماشا، بعد أن قلَّبت شتى أنواع المؤلفات أن يتجه اهتمامها إلى الروايات. وهكذا أتمت تربيتها التي بدأت في زمن ما تحت إشراف المادموازيل ميمي، التي أولاها كيريلا بتروفيتش ثقته وعطفه الكبيرين، ثم اضطر أخيرًا إلى نفيها بهدوء إلى ضيعة أخرى، عندما أصبحت آثار هذه العلاقة واضحة للعيان وخلفت المادموازيل ميمي ذكرى عطِرة، فقد كانت فتاة طيبة، لها فيما يبدو تأثير على كيريلا بتروفيتش لم تحاول أبدًا أن تستغله لأغراض شريرة، الأمر الذي ميزها عن المربيات اللواتي كان يغيرهن باستمرار. وبالنسبة إلى كيريلا بتروفيتش نفسه، فقد أحبها فيما يبدو أكثر من الأخريات. أما الصبي الشقي ذو العينين السوداوين والأعوام التسع، والذي تشبه ملامحه ملامح المادموازيل ميمي الجنوبية، فقد تربَّى تحت رعايته واعترف به ترويكورف ابنًا

له، بالرغم من أن كثرة من الأطفال الحفاة والذين يشبهون كيريلا بتروفيتش تمامًا ظلوا يركضون تحت نوافذه باعتبارهم من الخدم.

وقد استحضر كيريلا بتروفيتش لصغيره ساشا من موسكو مدرسًا فرنسيًّا، وصل إلى بكروفسكويه في زمن هذه الأحداث التي نتكلم عنها الآن.

وقد راق هذا المدرس لكيريلا بتروفيتش لمظهره الطيب ومعاملته البسيطة، ثم قدَّم لكيريلا بتروفيتش شهاداته ورسالة من أحد أقرباء ترويكورف الذي كان هذا المدرس يعمل لديه وصيفًا أربع سنوات. وفحص كيريلا بتروفيتش كل ذلك، والشيء الوحيد الذي لم يعجبه هو صغر سن هذا الفرنسي، لا لأنه كان يعتقد أن هذا العيب الطيب، لا يتفق والصبر والخبرة اللازمين لمهنة المدرس البائسة، وإنما كان لديه شكوكه الخاصة، التي قرر أن يوضحها له في التو واللحظة، ولهذا الغرض أمر باستدعاء ماشا (لم يكن كيريلا بتروفيتش يعرف الفرنسية، ولهذا كانت ماشا بمثابة مترجم له).

– تعالي هنا يا ماشا، وقولي لهذا المسيو إنني قد قبلته ... على خيرة الله ... ولكن بشرط ألَّا يجرؤ على رفع عينيه إلى فتياتي، وإلَّا فإنني سوف أريه ... ابن الكلب هذا ... ترجمي له ما قلت، يا ماشا.

واحمرت ماشا، ثم استدارت نحو المدرس وقالت له بالفرنسية إن أباها يأمل في تواضعه وسلوكه المهذب.

وانحنى لها الفرنسي، وأجاب بأنه يأمل أن يحوز الاحترام، حتى وإن رفضوا أن يولوه العطف.

وترجمت ماشا إجابته بالحرف الواحد.

فقال كيريلا بتروفيتش: حسنًا، حسنًا، إنه ليس بحاجة لا إلى الاحترام ولا إلى العطف ... إن عمله هو العناية بساشا وتعليمه النحو والجغرافيا. ترجمي هذا له.

وخففت ماريا كيريلوفنا في ترجمتها من ألفاظ أبيها الخشنة، وبعدها صرف كيريلا بتروفيتش الفرنسي إلى الجناح الذي خصصت له غرفة فيه.

ولم تعِر ماشا الفرنسي الشاب أدنى التفات، فتربيتها الأرستقراطية المتحيزة جعلتها تضع المدرس في زمرة الخدم أو الأسطوات، والخادم أو الأسطى لم يكن في نظرها رجلًا. كذلك لم تلحظ الانطباع الذي خلفته لدى مسيو ديفورج ولا خجله ولا اضطرابه أو صوته المتهدج. ثم بعد ذلك، ولعدة أيام متوالية، رأته مرات عديدة دون أن توليه اهتمامًا أكبر. ثم تكوَّن لديها بطريقة غير متوقَّعة، تصور جديد للغاية عنه.

كان كيريلا بتروفيتش كالعادة يربي في داره عدة دببة صغيرة، وكانت تعتبر لونًا من أهم ألوان لهو إقطاعي بكروفسكويه، وكانت الدببة — وهي بعد صغيرة جدًّا — تُساق كل يوم إلى غرفة الجلوس، حيث يلهو بها كيريلا بتروفيتش ساعات متواصلة، محرِّشًا بينها وبين الجراء والقطط. وبعد أن تكبر الدببة كانت تُربط في سلسلة في انتظار التحريش الحقيقي. وكانوا أحيانًا يقودونها أمام نوافذ البيت ثم يدحرجون أمامها برميل خمر فارغ مزروع بالمسامير، فكان الدب يشمشمه قليلًا ثم يلمسه بحذر فيخز يديه، فيغضب ويدفعه بشدة، فيشتد عليه الألم. وعندئذٍ يصيبه سعار فلا يزال ينقض على البرميل وهو يزمجر حتى ينتزعوا من الوحش المسكين مادة غضبه الذي لا طائل منه. وكان يحدث أحيانًا أن يسرجوا زوجًا من الدببة في عربة ويُجلسوا فيها الضيوف طوعًا أو كراهية، ثم يطلقونهم مع الدببة لتركض إلى حيث يشاء الله. أما المزحة المفضلة لدى كيريلا بتروفيتش فكانت التالية.

كانوا يحبسون الدب الجائع في غرفة خاوية، ويقيدونه بحبل مربوط إلى حلقة مثبتة في الحائط، وكان الحبل بطول الغرفة تقريبًا، بحيث لا يظل في الغرفة مكان آمن من بطش الوحش المرعب إلَّا الركن المقابل، وفي العادة كانوا يأتون بشخص لا علم له بالأمر إلى باب الغرفة، ثم يدفعونه فجأة عبر الباب إلى الدب، ثم يغلقون الباب، ويتركون الضحية البائسة وجهًا لوجه مع وحش البراري الأشعث، وكان الضيف المسكين، بعد أن تتمزق أطراف ردائه ويسيل الدم من جروحه، يجد بسرعة الركن الآمن، ولكنه أحيانًا يضطر إلى الوقوف ثلاث ساعات كاملة، ملتصقًا بالجدار، يرقب الوحش الهائج على قيد خطوتين منه وهو يزأر ويثب ويشب على رجليه الخلفيتين، ثم ينقضُّ محاولًا الوصول إليه. تلك هي صورة اللهو النبيل للإقطاعي الروسي! وبعد عدة أيام من وصول المدرس، تذكَّره ترويكورف، وقرر أن يقدِّم له فروض الضيافة في غرفة الدب، ومن أجل ذلك دعاه ذات صباح، وسار به عبر أروقة مظلمة، ثم انفتح فجأة باب جانبي، وظهر خادمان دفعا بالفرنسي خلال الباب، ثم أغلقاه بالمفتاح. وما إن أفاق المدرس من المفاجأة حتى رأى الدب المقيد. بدأ الوحش ينفخ في منخريه وهو يشمشم ضيفه على البعد، ثم وقف فجأة على رجليه الخلفيتين وهجم عليه، ولم يرتبك الفرنسي أو يهرب، بل انتظر الهجوم. واقترب الدب؛ فأخرج ديفورج من جيبه فردًا صغيرًا، دسه في أذن الوحش الجائع وأطلق النار، فخر الدب صريعًا. وأسرع الجميع إلى هناك وفتحوا الباب، ودخل كيريلا بتروفيتش مصعوقًا لهذه النهاية التي انتهت إليها مزحته.

وطلب كيريلا بتروفيتش بإصرار توضيحًا للأمر كله، فمن ذا الذي حذر ديفورج من المزحة التي دُبرت له، أو لماذا كان معه فرد محشو في جيبه، وأرسل يستدعي ماشا. وجاءت ماشا مهرولة وترجمت للفرنسي أسئلة أبيها.

– إنني لم أسمع شيئًا عن الدب — أجاب ديفورج — ولكني دائمًا أحمل معي فردًا، لأنني لست مستعدًّا أن أتحمل إهانة، لا يسمح لي وضعي أن أطلب اعتذارًا عنها.

ونظرت إليه ماشا مبهورة، ثم ترجمت إجابته لكيريلا بتروفيتش الذي لم ينبس بكلمة، ثم أمر بحمل الدب وسلخ فروته، وبعد ذلك التفت إلى أتباعه وقال: أرأيتم هذا الهمام؟! لم يجبُن أي، والله لم يجبن! ومنذ تلك اللحظة أحب ديفورج، ولم يفكر أن يختبره بعد ذلك.

ولكن هذا الحادث ترك انطباعًا أقوى لدى ماريا كيريلوفنا وأثار خيالها. لقد رأت الدب الصريع، وديفورج يقف فوق رأسه هادئًا، ويتكلم معها باطمئنان. وعرفت أن الشجاعة والاعتزاز الأبي بالنفس ليست قاصرة على طبقة واحدة. ومن يومها أصبحت تولي المدرس الشاب احترامًا أخذ يزداد ساعة بعد ساعة. ونشأت بينهما شبه علاقة، فقد كان لماشا صوت رائع ومواهب موسيقية كبيرة، فتطوع ديفورج بإعطائها دروسًا. وبعد ذلك ليس من الصعب على القارئ أن يخمن أن ماشا وقعت في حبه، ولمَّا تعترف بذلك بينها وبين نفسها بعد.

الجزء الثاني

الفصل التاسع

قبيل العيد، بدأ الضيوف يتوافدون، فنزل بعضهم في منزل السيد والأجنحة الخارجية، وبعضهم نزل عند الوكيل، والبعض الثالث عند الراهب، والبعض الرابع عند أغنياء الفلاحين. وكانت الإصطبلات غاصة بجياد السفر، والأفنية والحظائر مزدحمة بالعربات المختلفة. وفي الساعة التاسعة صباحًا رنَّت الأجراس داعية إلى القُداس، فتقاطر الجميع نحو الكنيسة الجديدة، المشيدة من الحجر على نفقة كيريلا بتروفيتش، والمزدانة بهباته التي كان يقدمها كل عام. وتجمَّع جمهور ضخم من المصلين الموقَّرين، حتى إن بسطاء الفلاحين لم يجدوا لهم مكانًا داخل الكنيسة فوقفوا على سلمها وفي الفناء. ولم يبدأ القُداس فقد كانوا ينتظرون وصول كيريلا بتروفيتش، ثم جاء راكبًا عربة تجرها ستة خيول، وتقدم ليشغل مكانه تحفُّه المهابة وتصحبه ماريا كيريلوفنا التي كانت محط أنظار الرجال والنساء، فأُعجب الفريق الأول بجمالها، أما الفريق الثاني فتفحَّص ملابسها باهتمام. وبدأ القُداس، واصطف المرتلون المنزليون جوقة، وحتى كيريلا بتروفيتش نفسه ردد مقاطع الترتيل، وصلَّى دون أن يتلفت يمنة أو يسرة، ثم طأطأ رأسه في خشوع متكبِّر عندما دعا الشمَّاس بصوتٍ عالٍ لمشيد هذا المعبد.

وانتهى القُدَّاس؛ فكان كيريلا بتروفيتش أول من اقترب من الصليب ثم تبعه الجميع، وبعد ذلك تقدم الجيران نحوه ليحيوه، وأحاطت السيدات بماشا. وفي طريقه إلى خارج الكنيسة دعا كيريلا بتروفيتش الجميع إلى تناول الغداء في داره، ثم جلس في العربة متوجهًا إلى المنزل، فانطلق الجميع في أثره. وامتلأت الغرف بالضيوف. وكانت تفِد وجوه جديدة كل لحظة، وتشق طريقها إلى السيد بمنتهى الصعوبة. وجلست السيدات في شبه حلقة موقَّرة، في أزياء مستعملة وغالية متأخرة عن الموضة، ومزينات بالجواهر واللآلئ، وتكدس

الرجال بالقرب من الفودكا والكافيار وتحدثوا فيما بينهم مثيرين ضجة متعددة الأصوات. وفي الصالة أعدوا مائدة لثمانين شخصًا. وجرى الخدم هنا وهناك وهم يرصُّون زجاجات الخمر والدوارق، ويمدون المفارش. وأخيرًا أعلن الوصيف: الطاولة مُعدَّة ... فكان كيريلا بتروفيتش أول من نهض ليجلس إلى الطاولة، ثم سارت خلفه السيدات، واحتللن مقاعدهن بعظمة مراعيات نوعًا من الأقدمية، أما الآنسات فتلاصقن بعضهن ببعض كقطيع خجول من الماعز، واختارت كل منهن مقعدها بجوار الأخرى. وفي الجانب المقابل لهن جلس الرجال. وفي طرف الطاولة جلس المدرس بجوار الصغير ساشا.

وأخذ الخدم يوزعون الأطباق حسب رتب الضيوف مسترشدين في حالة الغموض بتخمينات لافايتر فلم يخطئوا تقريبًا في معظم الأحوال. واختلط رنين الأطباق والملاعق بحديث الضيوف الصاخب. واستعرض كيريلا بتروفيتش مائدته بنظرة مرحة واستمتع تمامًا بسعادة المضيف الكريم ... وفي هذه اللحظة دخلت الفناء عربة تجرها ستة خيول.

وسأل رب الدار: من هذا؟

– إنه أنطون بافنوتيتش. أجابته عدة أصوات.

وفُتح الباب واندفع إلى غرفة الطعام أنطون بافنوتيتش سبيتسين، رجل بدين، في الخمسين من عمره، ذو وجه مستدير مجدور، وذقن تتدلى تحتها طبقتان من الشحم، وأخذ ينحني ويبتسم وقد استعد لتقديم اعتذاره. ولكن كيريلا بتروفيتش صاح: أحضروا الأطباق ... على الرحب والسعة يا أنطون بافنوتيتش، اجلس وخبرنا لماذا تغيبت عن قُداسي وتأخرت على الغداء. إن هذا ليس من شيمك، فأنت رجل متعبِّد ومولع بالأكل أيضًا.

وأجاب أنطون بافنوتيتش وهو يثبت المنشفة في عروة القفطان الأصفر بلون العدس: مذنب، مذنب يا سيدي كيريلا بتروفيتش. لقد خرجت مبكرًا، ولكن لم أكد أقطع عشرة فراسخ حتى انفلق إطار العجلة الأمامية، فماذا أفعل؟ لحسن الحظ لم نكن بعيدين عن القرية، ولكن إلى أن وصلنا إليها، ثم إلى أن وجدنا الحداد، ثم إلى أن أصلحناها كيفما اتفق مرَّت ثلاث ساعات. ما باليد حيلة. ولم أجرؤ على اختيار أقصر الطرق عبر غابة كيستينيوفكا، فلجأت إلى الدوران حولها ...

وقاطعه كيريلا بتروفيتش: إنه يبدو أنك لست من معشر الشجعان ... ماذا تخاف؟

– ماذا أخاف؟ كيف؟ ودوبروفسكي؟ قد أقع في قبضته بين لحظة وأخرى، وهو فتى محنَّك لا يدع أحدًا يفلت من يديه، أما أنا بالذات فسيسلخ جلدي مرتين.

– ولماذا يا أخي يخصك بهذا التمييز؟

– كيف لماذا يا سيدي كيريلا بتروفيتش؟ بسبب قضية المرحوم أندري جافريلوفيتش. ألست أنا الذي أثبت لأجل خاطرك، أعني وفقًا للضمير والعدالة، أن دوبروفسكي يملك كيستينيوفكا عن غير وجه حق وفقط بسبب تسامحكم، وقد وعد المرحوم (أسكنه الله فسيح جناته) أن يصفِّي حسابه معي بطريقته الخاصة، وسيفي ابنه على الأرجح بوعد أبيه. وحتى هذه اللحظة سترها الله، فلم ينهبوا مني غير مخزن الحبوب، وما يدريك لعلهم ينقضُّون على داري بالذات، وقال كيريلا بتروفيتش ملاحظًا: وسيجدون في الدار كنزهم … لا بد أن العملة الحمراء ملأى حتى آخرها.

– رُحماك يا سيدي كيريلا بتروفيتش … كانت ملأى والآن فارغة!

– كفاك كذبًا يا أنطون بافنوتيتش، لن تخدعنا … أين تنفق نقودك إذا كنت تعيش في منزلك عيشة الخنازير ولا تدعو أحدًا، وتنهب فلاحيك … طبعًا ليس أمامك إلَّا أن تكنز النقود لا أكثر.

ودمدم أنطون بافنوتيتش وهو يبتسم: أنت دائمًا تحب المزاح يا سيدي كيريلا بتروفيتش، غير أننا أفلسنا، أي والله. وابتلع أنطون بافنوتيتش مزحة رب الدار، وغطَّى عليها بقطعة دسمة من شطيرة.

وانصرف عنه كيريلا بتروفيتش، والتفت إلى رئيس الشرطة الجديد، الذي حلَّ في ضيافته للمرة الأولى والجالس على الطرف الآخر للمائدة بجوار المدرس: وأنت، هل ستقبض على الأقل على دوبروفسكي يا حضرة الرئيس؟

وجبن الرئيس وانحنى وابتسم وتلعثم ثم أخيرًا قال: سنبذل جهدنا يا صاحب المعالي.

– احم! سنبذل جهدنا! منذ أمد بعيد وهم يبذلون جهودهم، ومع ذلك لا فائدة، ثم حقًّا، لماذا القبض عليه؟ إن جرائم دوبروفسكي نعمة لضباط الشرطة، إذ بسببها يسافرون هنا وهناك، ويُجرون التحقيقات ويستغلون العربات. وبعد ذلك يضعون النقود في جيوبهم، فكيف يقضون على رب النعمة هذا؟ أليس كذلك يا حضرة الرئيس؟

وأجاب الرئيس المرتبك للنهاية: عين الحقيقة يا صاحب المعالي.

وقهقه الضيوف.

وقال كيريلا بتروفيتش: أحب فيك الصراحة، ولكني آسف على رئيسنا المرحوم تاراس أليكسييفيتش. لو لم يحرقوه لكانت الأحوال في ناحيتنا أهدأ. ما هي أخبار دوبروفسكي؟ أين شوهد آخر مرة؟

وأجاب صوت نسائي غليظ: عندي يا كيريلا بتروفيتش … لقد تناول عندي الغداء يوم الثلاثاء الماضي.

واتجهت أنظار الجميع إلى أنَّا سافيشنا جلوبوفا، تلك الأرملة البسيطة، والمحبوبة من الجميع لشخصيتها الطيبة المرحة، واستعدوا لسماع قصتها وقد استحوذ عليهم الفضول.

– أريد أن أخبركم بأنني أرسلت وكيلي منذ ثلاثة أسابيع إلى البريد ليرسل نقودًا لابني فانيوشا. إنني لا أدلل ابني، بل لا أستطيع أن أدلِّلــه، وإن كنت أرغب في ذلك، لكنكم تعلمون أن ضابط الحرس يجب أن يحيا حياة لائقة به، ولذلك أعطي لفانيوشا كل ما أستطيع من دخلي القليل. وهكذا أرسلت إليه ألفي روبل. ومع أن دوبروفسكي طرأ على ذهني أكثر من مرة، إلَّا أنني قلت لنفسي: المدينة ليست بعيدة، فالمسافة لا تزيد على سبعة فراسخ وربما يمر الأمر على خير. وإذا بوكيلي يعود في المساء شاحبًا، ممزق الثياب وبدون العربة، فشهقت: «ما هذا؟ ماذا حدث لك؟» فقال: سيدتي أنَّا سافيشنا، نهبني اللصوص، وكادوا يقتلونني. دوبروفسكي نفسه كان هناك، وأراد أن يشنقني، ثم رأف بي وأطلق سراحي، ولكنه أخذ كل شيء، حتى الحصان والعربة. وصعقت: يا إلهي، ماذا سيفعل ابني فانيوشا؟ ولم يكن بيدي حيلة، فكتبت له رسالة شرحت له فيها كل شيء، وبعثت إليه بركاتي دون درهم واحد.

ومرَّ أسبوع ثم آخر، وإذا بعربة تصل إلى فناء داري ويخرج منها جنرال يطلب مقابلتي. أهلًا وسهلًا، ودخل رجل في حوالي الخامسة والثلاثين، أسمر، أسود الشعر، ذو شوارب ولحية، نسخة طبق الأصل من كولنيف، وقدَّم نفسه على أنه صديق المرحوم زوجي إيفان أندرييفيتش وزميله في الخدمة. وحسبما قال فقد كان مارًّا بالمكان، ولما علم أنني هنا لم يستطع إلَّا أن يزور أرملته. وأكرمته مما رزقني الله. وتحدثنا في شتَّى الأمور، وأخيرًا وصلنا إلى دوبروفسكي. وهنا حكيت له عن مصيبتي، وتجهَّم جنرالي ثم قال: هذا أمر غريب، لقد سمعت أن دوبروفسكي لا ينهب كل الناس بل الأغنياء المعروفين فقط، وحتى هؤلاء لا ينهبهم تمامًا، بل يترك لهم نصيبًا. وليس هناك من يتهمه بارتكاب جرائم القتل. يبدو أن هناك خداعًا في هذه الواقعة. استدعي وكيلك لو سمحت. وأرسلت أستدعيه فجاء. وما إن رأى الجنرال حتى جمد في مكانه. «خبرني يا أخي كيف سطا عليك دوبروفسكي وكيف أراد أن يشنقك؟» ارتعش وكيلي ثم ارتمى على قدمي الجنرال: «مذنب يا سيدي، الشيطان أغواني. لقد كذبت.» فقال الجنرال: «ما دام الأمر كذلك، فلتقص على السيدة الحادثة كما وقعت، وسوف أستمع إليك.» ولم يستطع الوكيل أن يسيطر على نفسه، فواصل الجنرال: «حسنًا، قل: أين قابلت دوبروفسكي؟»

– «عند شجرتي الصنوبر يا سيدي، عند شجرتي الصنوبر.»

– «وماذا قال لك؟»
– «حسنًا، وبعد ذلك؟»
– «بعد ذلك طلب الرسالة والنقود.»
– «ثمَّ؟»
– «أعطيته الرسالة والنقود.»
– «وهو، ماذا فعل هو؟»
– «مذنب يا سيدي!»
– «وهو، ماذا فعل؟»
– «أعاد إليَّ الرسالة والنقود وقال: اذهب في رعاية الله، وسلِّم ما معك في مكتب البريد.»
– «ثمَّ؟»
– «مذنب يا سيدي!»
– «سأصفي الحساب معك يا هذا.»

قال الجنرال بصوت رهيب: «أما أنتِ يا سيدتي فلتأمري بتفتيش صندوق هذا النصَّاب، ثم سلميه لي وسألقنه درسًا. عليكِ أن تعلمي أن دوبروفسكي نفسه كان ضابطًا في الحرس، ولا يحب الإساءة إلى رفيق». وخمَّنْت من يكون معاليه، فلم يكن الأمر يحتاج إلى كلام. وربط الحوذية وكيلي إلى مقعد السائق، ثم وجدنا النقود. وتغدى الجنرال عندي ثم رحل بسرعة وأخذ معه الوكيل. وفي اليوم التالي وجدنا وكيلي مقيدًا إلى شجرة بلوط، ومجردًا من كل شيء.

واستمع الجميع في صمت إلى قصة أنَّا سافيشنا، وخاصة الآنسات، وشعرت الكثيرات منهن بالميل نحو دوبروفسكي ووجدن فيه صورة البطل الرومانسي، وخاصة ماريا كيريلوفنا ذات الخيال الجامح، والمشبعة بروايات رادكليف، المليئة بالرعب الغامض.

وسأل كيريلا بتروفيتش: وإذن فأنتِ تعتقدين يا أنَّا سافيشنا، أن دوبروفسكي نفسه كان عندك، إنكِ مخطئة تمامًا. لست أدري من زارك، ولكنه ليس دوبروفسكي.

– ومن إذن يا سيدي غير دوبروفسكي يخرج إلى الطرق ويستوقف المارة ويفتشهم؟

– لست أدري، ولكنه ليس دوبروفسكي بالتأكيد. إنني أذكره عندما كان طفلًا، ولست أدري هل اسودَّ شعره أم لا، ولكنه كان أيامها صبيًّا ذا شعر أشقر مجعد، وأعلم بالتأكيد أن دوبروفسكي أكبر من ابنتي ماريا بخمس سنوات، وبالتالي فعمره الآن حوالي ٢٣ سنة وليس ٣٥.

– بالضبط تمامًا يا صاحب المعالي — قال الرئيس — معي الآن في جيبي أوصاف فلاديمير دوبروفسكي، ومكتوب فيها بالضبط أن عمره ٢٣ سنة.

– آ... — قال كيريلا بتروفيتش — اقرأها لنا بالمناسبة، وسوف نصغي إليك، فلن يضيرنا أن نعرف أوصافه، ربما تقع عليه أبصارنا، وساعتها لن يفلت.

وأخرج الرئيس من جيبه ورقة قذرة للغاية وبسطها بعظَمة، وأخذ يقرأ بصوت منغم:

«أوصاف فلاديمير دوبروفسكي، طبقًا لرواية رجال حاشيته السابقين.

العمر: ٢٣ سنة، الطول: متوسط، الوجه: نظيف، الذقن: حليق، العينان: عسليتان، الشعر: فاتح، الأنف: مستقيم. علامات مميزة: لا يوجد.»

– هل هذا فقط كل ما لديك؟ قال كيريلا بتروفيتش.

– فقط ... أجاب الرئيس وهو يطوي الورقة.

– أهنئك يا حضرة الرئيس. يا لها من مستندات! بمثل هذه الأوصاف لن يصعب عليكم العثور على دوبروفسكي! من ذا الذي طوله ليس متوسطًا؟ ومن ذا الذي شعره غير فاتح، أو أنفه غير مستقيم، أو عيناه غير عسليتين؟ أقسم إنك قد تتكلم ثلاث ساعات مع دوبروفسكي نفسه، دون أن تخمِّن مع من جمعك القدر. ما أذكى أدمغة الموظفين!

ووضع الرئيس ورقته في جيبه بخنوع، وبدأ في صمت يأكل الإوزة مع ورق الكرنب، بينما كان الخدم قد داروا عدة مرات على الضيوف، مالئين لكل منهم كأسه، وفُتحت عدَّة زجاجات من خمر «جورسكي» و«تسيمليانسكي» بفرقعة، فقوبلت بارتياح على أنها شمبانيا، وبدأت الوجوه تحمر، وأصبحت الأحاديث أكثر رنينًا واضطرابًا ومرحًا.

وواصل كيريلا بتروفيتش: كلا، لن نرى رئيسًا مثل المرحوم تاراس أليكسييفيتش! لم تكن تنقصه الحنكة أو الدراية. من المؤسف أنهم أحرقوه، وإلَّا لما أفلت أحد من العصابة. لو كان حيًّا لأمسك بهم جميعًا. حتى دوبروفسكي نفسه، ما كان ليستطيع أن يفلت أو يفدي نفسه، فإن تاراس أليكسييفيتش كان سيأخذ منه الفدية، ولكنه لا يطلق سراحه، تلك كانت طبيعة المرحوم. ليس هناك حل آخر سوى أن أتدخل في الأمر وأهجم على العصابة مع رجالي. وفي البداية سأسلح عشرين رجلًا وأنظف بهم غابة اللصوص. إن رجالي شجعان، كل منهم يصطاد الدب بمفرده، ولم يجبنوا أمام قطَّاع الطرق.

– هل دبُّكم بخير يا سيدي كيريلا بتروفيتش؟ سأل أنطون بافنوتيتش وقد تذكر عند هذه الكلمات صاحبه الأشعث، وكذلك بعض المزحات التي كان هو أيضًا ضحيتها في وقت ما.

– ميشا[1] أسلم روحه لبارئها — أجاب كيريلا بتروفيتش — لقد مات ميتة مجيدة على يد العدو، وها هو المنتصر هناك — وأشار كيريلا بتروفيتش إلى ديفورج — لقد انتقم لك، أتذكر؟

– كيف لا أذكر — قال أنطون بافنوتيتش وهو يحك جلده — أذكر جيدًا. إذن فميشا قد مات … إني آسف عليه، أي والله آسف! كم كان مضحكًا! كم كان ذكيًّا! دُب لا مثيل له. ولماذا قتله المسيو؟

وأخذ كيريلا بتروفيتش يقص بتلذذ عظيم مأثرة رجله الفرنسي، فقد كان يمتاز بموهبة سعيدة وهي أن يتباهى بكل ما يحيط به. وسمع الضيوف باهتمام قصة مصرع ميشا وأخذوا ينظرون مبهورين إلى ديفورج الذي ظل جالسًا في مكانه هادئًا، يوجه لتلميذه الجذل، الملاحظات الأخلاقية وهو لا يحدس أن الحديث كان يدور عن شجاعته.

وانتهى الغداء الذي استمر حوالي ثلاث ساعات، ووضع المضيف منشفته على الطاولة، فنهض الجميع وتوجهوا إلى غرفة الاستقبال حيث كان في انتظارهم القهوة وورق اللعب والشرب المتواصل، الذي كانت بدايته المجيدة في غرفة الطعام.

[1] يطلقون في روسيا اسم «ميشا» على الدب تدليلًا. (المترجم)

الفصل العاشر

في حوالي السابعة مساءً أراد بعض الضيوف أن يرحلوا، ولكن رب الدار وقد انتشى من الخمر أعطى أوامره بإغلاق البوابة وأعلن أنه لن يدع أحدًا يرحل قبل الصباح. وسرعان ما صدحت الموسيقى وفُتحت أبواب القاعة وبدأت حفلة الرقص، وجلس رب الدار وضيوفه المقربون في الركن وأخذ يشرب الكأس تلو الكأس ويرقب مرح الشباب بغبطة. وجلست العجائز يلعبن الورق. وكان الراقصون من الرجال أقل من النساء، كما هو الحال دائمًا في أي مكان لا تعسكر فيه إحدى فرق الفرسان، فجُنِّد جميع من يصلح من الرجال لهذا الغرض، وتميز المدرس بين الجميع ورقص أكثر من الكل، واختارته جميع الآنسات مراقصًا، واكتشفن أنه من السهل تأدية رقصة الفالس معه، ودار عدة دورات وهو يراقص ماريا كيريلوفنا، وراقبتهما أعين الفتيات الساخرة. وقُرب منتصف الليل أنهى رب الدار حفلة الرقص؛ إذ شعر بالتعب، وأمر بتقديم العشاء بينما انصرف هو لينام.

وأعطى غياب كيريلا بتروفيتش للجميع مزيدًا من الحرية والحركة، فتجرأ الراقصون على شغل أماكنهم بجوار السيدات، وضحكت الفتيات وتبادلن الهمس مع جاراتهن، وتحدثت السيدات بصوت عالٍ عبر الطاولة. أما الرجال فكانوا يشربون ويتناقشون ويقهقهون، وباختصار كان العشاء مرحًا للغاية، وخلَّف في النفوس ذكريات طيبة كثيرة.

لكن واحدًا فقط لم يشترك في هذه الفرحة الجماعية، ألا وهو أنطون بافنوتيتش، فقد جلس في مكانه عابسًا صامتًا، وأكل وهو شارد الذهن، وبدا قلقًا للغاية. لقد أثارت مشاعره تلك الأحاديث التي دارت عن قطَّاع الطرق. وسنرى حالًا أنه كان هناك سبب وجيه لخوفه منهم.

لم يكذب أنطون بافنوتيتش، أو يرتكب إثمًا، عندما دعا ربه ليكون شاهدًا على أن علبته الحمراء كانت خاوية. فقد كانت العلبة الحمراء خاوية فعلًا، إذ انتقلت النقود التي

كانت في وقت ما مخبأة فيها، إلى حقيبة جلدية ربطها على صدره تحت القميص. وفقط بفضل هذا الإجراء الاحتياطي استطاع أن يطمئن شكه في كل إنسان وخوفه الدائم. ولما كان مضطرًّا إلى المبيت في دار غريبة، فقد خشي أن يخصصوا له مكانًا في غرفة منعزلة يسهل على اللصوص اقتحامها. وأخذ يفتش بعينيه عن رفيق يعتمد عليه، فوقع اختياره أخيرًا على ديفورج. والذي حدد هذا الاختيار هو مظهر ديفورج الدال على القوة، والأكثر من ذلك شجاعته التي تجلَّت عند لقائه مع الدب، هذا الدب الذي لم يكن أنطون بافنوتيتش المسكين يتذكره إلَّا ويشعر بالقشعريرة تسري في بدنه. وعندما غادر الضيوف الطاولة أخذ أنطون بافنوتيتش يحوم حول الفرنسي الشاب، ويتنحنح ويسعل، وأخيرًا خاطبه موضحًا: احم ... احم ... ألا يمكن يا مسيو أن أبيت في غرفتك الصغيرة لأنه، إذا أردت الحقيقة ...

Que desire monsieur?[١]

– أوه، يا للمصيبة، لم تتعلم الروسية بعد يا مسيو. جي في موا شي فو كوشيه،[٢] هل تفهمني؟

أجاب ديفورج: Monsieur, très volontier, veuillez donner des ordres en conséquence.[٣]

وفي الحال انطلق أنطون بافنوتيتش لعمل الترتيبات اللازمة، وهو مسرور للغاية لمعلوماته في مجال اللغة الفرنسية.

ودَّع الضيوف بعضهم بعضًا، واتجه كلٌّ إلى الغرفة المخصصة له. وذهب أنطون بافنوتيتش مع المدرس إلى الجناح. كانت الليلة مظلمة، فأضاء ديفورج طريقهما بمصباح، وسار خلفه أنطون بافنوتيتش في غاية النشاط. وكان أحيانًا يضم إلى صدره الحقيبة المخبأة لكي يتأكد أن النقود ما زالت موجودة.

وعندما دخلا إلى الجناح، أضاء المدرس شمعة، وبدأ كلاهما يخلعان ملابسهما. وفي هذه الأثناء أخذ أنطون بافنوتيتش يجوس في الغرفة ويفحص الأقفال والنوافذ ويهز رأسه لنتيجة الفحص غير المطمئنة. لقد وجد الباب لا يغلقه سوى مرتاج، وليس للنوافذ أطر مزدوجة، وحاول أن يشتكي لديفورج من هذا الأمر، غير أن معرفته للفرنسية كانت أضيق

---

[١] ماذا تريد يا سيدي؟

[٢] أريد أن أبيت في غرفتك.

[٣] بكل سرور يا سيدي، أصدر الأوامر المناسبة لو سمحت.

من أن تتسع لمثل هذا الحديث المعقد فلم يفهمه الفرنسي، واضطر أنطون بافنوتيتش إلى الكف عن شكواه. وكان فراشاهما متقابلين. وعندما استلقيا عليهما أطفأ المدرس الشمعة.

– بوركوا فو توشي، بوركوا فو توشي[٤] — صرخ أنطون بافنوتيتش وصرف الفعل الروسي «تشيت» كيفما اتفق على الطريقة الفرنسية — إنني لا أستطيع دورمير[٥] في الظلام.

ولم يفهم ديفورج صرخته فتمنى له ليلة سعيدة.

ودمدم سبيتسين وهو يتلفلف بالغطاء: كافر ملعون ... لماذا أطفأ الشمعة ... هذا أسوأ بالنسبة إليه. فأنا لا أستطيع النوم دون ضوء ... يا مسيو، يا مسيو — ردد سبيتسين — جي في إفيك فو بارلي.[٦] ولكن الفرنسي لم يُجِب وسرعان ما علا شخيره.

وفكَّر أنطون بافنوتيتش: «هذا الفرنسي الوغد يشخر، بينما لا يخطر النوم لي على بال ... أخشى أن يدخل اللصوص خلال الباب المفتوح أو ينفذوا عبر النوافذ، ولن يستيقظ هذا الوغد ولو أُطلقت المدافع.»

– مسيو ... يا مسيو ... فلتذهب إلى الشيطان!

وصمت أنطون بافنوتيتش، فقد تغلب التعب ونشوة الخمر شيئًا فشيئًا على خوفه وبدأ يغفو، وسرعان ما راح في سبات عميق.

كان القدَر يخبئ له يقظة غريبة. فلقد شعر خلال النوم بشخص ما يشده بهدوء من ياقة قميصه. وفتح أنطون بافنوتيتش عينيه وفي الضوء الشاحب لصباح خريفي رأى أمامه ديفورج، كان الفرنسي ممسكًا في إحدى يديه بمسدس صغير، ويفك باليد الأخرى الحقيبة الغالية. وشلَّ الذهول أنطون بافنوتيتش ... ثم تمتم بصوت متهدج: كسكي سي مسيو، كسكي سي؟[٧]

- صه، اخرس – أجاب المدرس بلغة روسية صرفة – اخرس وإلَّا هلكت ... إنني دوبروفسكي.

---

[٤] لماذا أطفأتها، لماذا أطفأتها؟ فعل «توشيت» الروسي يعني أطفأ، أما فعل «توشير» الفرنسي بمعناه: لمس. (المترجم)

[٥] أن أنام. (المترجم)

[٦] أريد أن أتحدث معك.

[٧] ما هذا يا سيدي، ما هذا؟

الفصل الحادي عشر

فليسمح لنا القارئ الآن أن نفسر له الأحداث الأخيرة في قصتنا، وذلك بشرح الظروف السابقة، والتي لم يسعفنا الوقت للكلام عنها من قبل.

في محطة «…»، وفي منزل ناظر المحطة، الذي أشرنا إليه سابقًا جلس في الركن أحد المسافرين. وكان مظهره يدل على الخضوع والصبر، وعلى أن صاحبه إما رجل من غير طبقة النبلاء وإما أجنبي، أي رجل ليس له كلمة مسموعة على الطرق البريدية. وكانت عربته تقف في الفناء في انتظار التشحيم وفيها حقيبة صغيرة، دليل ضعيف على ثروة ضئيلة للغاية. ولم يطلب المسافر شايًا أو قهوة، بل أخذ يتطلع خلال النافذة ويصفر، مما أثار سخط زوجة الناظر، التي كانت تجلس خلف الحاجز.

– هل قد بلانا الله بمصفراتي — قالت هامسة — انظر كيف يصفر … فلتخطفه مصيبة، هذا الكافر الملعون.

فقال الناظر: وماذا هناك؟ فليصفر كما يحلو له.

– ماذا هناك؟! — قالت الزوجة الغاضبة معارضة — ألا تعرف نذير الشؤم؟

– أي نذير شؤم؟ أن الصفير يذهب بالنقود؟ إيه يا باخومفنا … ماذا يهمنا من الصفير أو عدمه ما دمنا بلا نقود على أي حال.

– دعه يرحل يا سيدوريتش … ما مصلحتك من إبقائه. أعطه خيولًا وليذهب إلى الشيطان.

– فلينتظر قليلًا يا بخومفنا. ليس لدينا في الإصطبل إلَّا ثلاثة أطقم خيول، والطاقم الرابع يستريح.[1] لا أريد أن أجُر على نفسي المتاعب بسبب هذا الفرنسي، فربما وصل الآن

---

[1] يتكون الطاقم من ثلاثة خيول، والعربة التي تجرها ثلاثة خيول تسمى «ترويكا» وكانت وسيلة انتقال شائعة في روسيا في ذلك العهد. (المترجم)

مسافرون من الأعيان، ها! بالضبط، ها هم يركضون ... أو، وه ... يركضون بسرعة ... ربما يكون جنرالًا؟

وتوقفت العربة عند السلاملك، وقفز خادم من مقعد الحوذي وفتح الباب، وما هي إلَّا لحظة حتى دخل إلى الناظر شاب يرتدي معطفًا عسكريًّا وعمرة بيضاء، ودخل خلفه خادم يحمل علبة، وضعها على النافذة.

وقال الضابط للناظر بلهجة آمرة: أعطني خيولًا!

فأجاب الناظر: حالًا ... أعطني لو سمحت بطاقة السفر.[٢]

– ليس معي بطاقة ... إنني مسافر في طريق فرعي ... ألا تعرف مَنْ أنا؟

وارتبك الناظر، ثم انطلق يستعجل الحوذية. وأخذ الشاب يروح جيئة وذهابًا في الغرفة، ثم عبر الحاجز وسأل زوجة الناظر بصوت خافت: من هذا المسافر؟

وأجابت زوجة الناظر: الله وحده يعلم ... إنه أحد الفرنسيين ... وها هو ينتظر الخيول خمس ساعات ويصفر ... لقد أضجرني هذا الملعون.

وتوجه الشاب إلى المسافر وسأله بالفرنسية: إلى أين تنوي الذهاب؟

فأجاب الفرنسي: إلى أقرب مدينة، ومنها سأتجه إلى أحد الإقطاعيين، الذي استأجرني غيابيًّا كمدرس. وقد ظننت أنني سأصل اليوم إلى مقصدي، ولكن يبدو أن لسيادة الناظر رأيًا آخر. من الصعب الحصول على الخيول في هذه البقعة يا سيدي الضابط.

وسأل الضابط: وعند أي إقطاعي ستعمل هنا؟

فأجاب الفرنسي: عند السيد ترويكورف.

– عند ترويكورف؟ من هذا الترويكورف؟

– Ma foi, monsieur[٣] ... لقد سمعت عنه أشياء غير طيبة كثيرة. يقولون إنه سيد صلب الرأس وقاسٍ في معاملته لمستخدميه، وأن أحدًا لا يستطيع معاشرته، وأن الجميع يرتعدون عند سماع اسمه، وأنه مع المدرسين يرفع الكلفة، بل لقد جلد اثنين منهم حتى الموت.

---

[٢] قبل مد السكك الحديدية، كان الانتقال من مكان إلى آخر، يتم في روسيا القيصرية بواسطة عربات تحمل البريد والمسافرين، وتسير على طرق رئيسية محددة. ويجري استبدال الجياد المتعبة عند كل محطة بعد تقديم بطاقة السفر اللازمة. (المترجم)

[٣] في الحقيقة يا سيدي ...

– حنانيك ... ومع ذلك قررت أن تعمل لدى هذا الوحش؟

– وماذا أفعل يا سيدي ... إنه يقترح راتبًا مغريًا، ثلاثة آلاف روبل في السنة، وكل ما يلزم. ربما كنت أسعد حظًّا من الآخرين. إن لي أمًّا عجوزًا سوف أرسل لها نصف الراتب لتعيش به، ومن الباقي يمكنني خلال خمس سنوات أن أدخر رأسمالًا صغيرًا يكفي لاستقلالي في المستقبل، وساعتها Bonsoir[4] سأرحل إلى باريس وأنخرط في التجارة.

وسأله الضابط: هل يعرفك أحد من منزل ترويكورف؟

– لا أحد — أجاب المدرس — لقد استأجرني هو من موسكو عن طريق أحد معارفه الذي رشحني إليه بدوره طاهيه الفرنسي أخي في الجنسية. وينبغي أن أخبرك بأنه لم يكن في نيتي أن أصير مدرسًا، بل حلوانيًّا، ولكني علمت أن مهنة المدرس في بلادكم أربح بكثير ...

واستغرق الضابط في التفكير، ثم قاطع الفرنسي قائلًا: اسمع ... ما رأيك لو اقترحت عليك عشرة آلاف روبل عدًّا ونقدًا، بدلًا من عملك هذا بشرط أن تعود في التو واللحظة إلى باريس؟

ونظر الفرنسي إلى الضابط مذهولًا ثم ابتسم وهز رأسه.

– الخيول مُعدَّة. قال الناظر وهو يدخل.

وأكَّد الخادم نفس الأمر.

– لحظة واحدة – قال الضابط – اخرجا وانتظراني دقيقة ... وخرج الناظر والخادم، فواصل كلامه بالفرنسية: أنا لا أمزح ... أستطيع أن أعطيك عشرة آلاف ولا أريد منك سوى رحيلك وأوراقك.

وما إن قال هذا حتى فتح العلبة وأخرج عدَّة رُزم من الأوراق المالية.

وجحظت عينا الفرنسي، ولم يعرف حتى فيمَ يفكر. وأخذ يكرر في ذهول: رحيلي ... أوراقي ... ها هي أوراقي ... ولكنك تمزح ... ما حاجتك إلى أوراقي؟

– لا دخل لك بذلك إني أسألك: هل توافق أم لا؟

ومدَّ الفرنسي وهو لا يصدِّق ما يسمع أوراقه إلى الضابط الشاب الذي فحصها بسرعة.

– جواز سفرك ... حسنًا، خطاب تزكية ... سنرى ... شهادة الميلاد ... رائع، والآن خذ نقودك وعُد من حيث أتيت ... وداعًا.

---

[4] وداعًا.

وظل الفرنسي واقفًا كالمقيد.

وعاد الضابط.

– كدت أنسى أهم شيء ... عِدني بشرفك أن هذا الأمر سيبقى سرًّا بيننا ... أعطني كلمة شرف.

– أعدك بشرفي ... ولكن أوراقي ... ماذا أفعل بدونها؟

– أعلِن في أول مدينة أن دوبروفسكي سطا عليك وسوف يصدقونك ويعطونك الشهادات اللازمة. وداعًا ... أرجو من الله لك عودة سريعة إلى باريس، وأن تجد والدتك بصحة طيبة.

وخرج دوبروفسكي من الغرفة وجلس في العربة ورحل.

وكان الناظر يتطلع من النافذة، وعندما رحلت العربة قال لزوجته بانفعال: أتعرفين يا باخومفنا من كان هنا؟ إنه دوبروفسكي!

واندفعت زوجة الناظر نحو النافذة، ولكن بعد فوات الأوان، إذ إن دوبروفسكي كان قد رحل، فأخذت تسب زوجها: إنك لا تخشى الله يا سيدوريتش ... لماذا لم تخبرني منذ البداية، كنت على الأقل ألقيت نظرة عليه، فما أظنه سيأتي مرة أخرى ... يا عديم الضمير ... نعم ... عديم الضمير.

وظل الفرنسي واقفًا كالمقيَّد، وخُيِّل إليه أن الاتفاق الذي أبرمه مع الضابط، والنقود، كل ذلك مجرد حلم. غير أن رزم البنكنوت كانت معه في جيبه، وكانت أقوى دليل على واقعية هذه الحادثة العجيبة.

وقرَّر أن يستأجر خيولًا حتى المدينة. وقاد الحوذي العربة ببطء فوصلا المدينة ليلًا.

وقبل أن يصلا إلى نقطة الحراسة التي كانت تنتصب بقربها صومعة حراسة مهدمة بدلًا من الحارس، أمر الحوذي أن يوقف العربة ثم نزل منها وسار على قدميه بعد أن أخبر الحوذي بواسطة الإشارات أنه يهدي إليه العربة والحقيبة ليشرب بثمنهما فودكا. وكما ذُهل هو لاقتراح دوبروفسكي، كذلك ذُهل الحوذي لكرمه، ولكن استنتج من هذا أن الفرنجي أصابه الجنون، فشكره بانحناءة شديدة، ثم قرر أنه من الأصوب ألَّا يذهب إلى المدينة وانطلق إلى أحد أماكن اللهو التي يعرفها جيدًا كما يعرف صاحبها. وهناك قضى ليلته. وفي اليوم التالي قفل راجعًا في عربة خالية تجرها ثلاثة جياد بدون الحقيبة والعربة وبوجه منتفخ وعينين حمراوين.

وبعد أن استولى دوبروفسكي على أوراق الفرنسي ذهب بجرأة إلى ترويكورف كما رأينا، وأقام في داره. وأيًّا كانت نواياه الخافية (والتي سنعرفها فيما بعد) إلَّا أن سلوكه

لم تشُبه شائبة. صحيح أنه لم يشغل نفسه كثيرًا بتربية الصغير ساشا، بل أعطاه مطلق الحرية في اللهو ولم يتشدد في محاسبته على استذكار الدروس التي كان يعطيها له محافظة على المظهر، ولكنه أبدى اهتمامًا وعناية كبيرين بنجاح تلميذته في الموسيقى. وكثيرًا ما كان يجلس معها بالساعات إلى البيانو. وأحب الجميع المدرس الشاب، أحبه كيريلا بتروفيتش لمهارته وجسارته أثناء الصيد، وأحبته ماريا كيريلوفنا لعنايته الفائقة واهتمامه الخجول، وأحبه ساشا لتسامحه إزاء عبثه، وأحبه أهل الدار لطيبته ولكرمه الذي لم يكن يتناسب على ما يبدو ووضعه المالي. أما هو فقد بدا أنه متعلق بالعائلة كلها، واعتبر نفسه بالفعل أحد أفرادها.

ومرَّ حوالي شهر منذ حمله لقب المدرس حتى ذلك الاحتفال المشهور، ولم يدُر بخلد أحد أنه في ذلك الشاب الفرنسي المتواضع كان يكمن قاطع طريق رهيب، يلقي اسمه الرعب في قلوب جميع الملَّاك المحليين. وطوال هذا الوقت لم يغادر دوبروفسكي ضيعة بكروفسكويه، غير أن الشائعات عن حوادث سطوه لم تنقطع، بفضل خيال أهالي القرى الخصب، وفضلًا عن ذلك فمن الجائز أن تكون عصابته قد واصلت نشاطها في غياب القائد.

وعندما بات دوبروفسكي في غرفة واحدة مع شخص كان بوسعه اعتباره عدوه الشخصي وأحد المتسببين الرئيسيين في مأساته، لم يستطع مقاومة الإغراء، فقد كان على علم بوجود الحقيبة، وقرر أن يستولي عليها. وقد رأينا كيف أذهل أنطون بافنوتيتش المسكين بتحوله المفاجئ من مدرس إلى قاطع طريق.

في الساعة التاسعة صباحًا توافد الضيوف الذين قضوا ليلتهم في بكروفسكويه الواحد تلو الآخر إلى غرفة الجلوس حيث كانت غلاية الشاي (السماور) تغلي، بينما جلست أمامها ماريا كيريلوفنا في ثوب صباحي. أما كيريلا بتروفيتش فكان يرتدي حلة من الكستور وحذاءً منزليًّا ويشرب الشاي من كوبه الواسع الذي يشبه وعاء الغسيل. وكان أنطون بافنوتيتش آخر من وصل. كان شاحبًا للغاية، وبدا حزينًا، حتى أن مظهره أذهل الجميع، ودفع كيريلا بتروفيتش إلى السؤال عن صحته. وأجاب سبيتسين إجابة لا معنى لها، واسترق النظر برعب إلى المدرس الذي كان يجلس هنا وكأنْ لم يحدث شيء. وبعد عدَّة دقائق دخل الخادم وأعلن أن عربة سبيتسين معدَّة، فأسرع أنطون بافنوتيتش ينحني مودعًا، وبالرغم من إلحاح رب الدار عليه بالبقاء غادر الغرفة على عجل ورحل من فوره. ولم يفهم أحد ماذا حدث له، وقرر كيريلا بتروفيتش أنه أفرط في الأكل. وبعد الشاي وإفطار الوداع بدأ الضيوف يرحلون، وسرعان ما أصبحت بكروفسكويه خاوية، وعاد كل شيء إلى ما كان عليه.

الفصل الثاني عشر

مرت عدَّة أيام ولم يحدث ما يلفت النظر في حياة سكان بكروفسكويه الرتيبة، فكان كيريلا بتروفيتش يخرج كل يوم للصيد، أما ماريا كيريلوفنا فشغلت وقتها بالقراءة والتريض، وبدروس الموسيقى بصفة خاصة. لقد بدأت تفهم قلبها، واعترفت — بضيق لا إرادي — أن هذا القلب لم يعد يشعر باللامبالاة نحو فضائل الفرنسي الشاب، الذي لم يتعدَّ من جانبه، حدود الاحترام والأدب الشديد، مما طمأن كرامتها وشكوكها وخوفها، فاستسلمت بثقة متزايدة لهذه العادة الجذابة. كانت في غياب ديفورج تستوحش له، وفي حضوره تنشغل به طوال الوقت، وتحاول معرفة رأيه في كل شيء، ودائمًا تتفق معه. ربما لم تكن قد وقعت في غرامه بعد، ولكن لهيب العاطفة كان مستعدًّا لأن يتأجج في قلبها لدى أول عقبة تصادفها أو أول مفاجأة يخبئها لها القدر.

وذات مرة، عندما دخلت ماريا كيريلوفنا القاعة حيث كان المدرس بانتظارها، لاحظت بدهشة الحيرة على وجهه الشاحب، وفتحت البيانو وغنت بعض الألحان، ولكن دوبروفسكي اعتذر بحجة صداع أصابه فقطع الدرس وأغلق النوتة الموسيقية، ودسَّ في يدها خلسة ورقة مكتوبة. وقبل أن تفيق ماريا كيريلوفنا من المفاجأة تناولتها منه وفي نفس اللحظة ندمت على ذلك، غير أن دوبروفسكي كان قد اختفى من الصالة. وذهبت ماريا كيريلوفنا إلى غرفتها وفتحت الورقة فقرأت التالي:

> «تعالي اليوم في الساعة السابعة إلى العريش عند الجدول، من الضروري أن أتحدث معكِ.»

وثار فضولها بشدة. لقد كانت تنتظر منه اعترافًا بالحب منذ مدَّة طويلة، وتتمناه وفي نفس الوقت تخشاه. كان يسُرها أن تسمع تأكيدًا لظنونها، ولكنها أحست أنه لن يكون

من اللائق سماع مثل هذا الاعتراف من شخص لا يسمح له وضعه أن يأمل أبدًا في الزواج منها. وقررت أن تذهب للموعد، غير أنها ترددت أمام شيء واحد: كيف ينبغي عليها أن تتقبل اعتراف المدرس: بغضب أرستقراطي، أم بوعد بالصداقة، أم بمزاح مرح، أم بعطف صامت. وفي هذه الأثناء كانت تتطلع إلى الساعة كل لحظة. ثم حلَّ الظلام فأوقدت الشموع، وجلس كيريلا بتروفيتش يلعب البوستون مع ضيوفه من الجيران. ودقت الساعة في غرفة الطعام معلنة السابعة إلَّا ربعًا؛ فخرجت ماريا كيريلوفنا بهدوء إلى السلاملك، وتلفتت حولها في جميع الجهات، ثم ركضت إلى الحديقة.

كانت الليلة مظلمة، والسماء ملفعة بالغيوم، ولا يمكنك رؤية شيء على بُعد خطوتين. لكن ماريا كيريلوفنا سارت في الظلمة على الدروب المعروفة، وبعد دقيقة وصلت إلى العريش. وهناك توقفت لتلتقط أنفاسها وتقابل ديفورج بمظهر اللامبالاة والتأني، بيد أن ديفورج كان أمامها بالفعل.

– أشكرك — قال بصوت هادئ حزين — على عدم رفضك لرجائي. لو لم توافقي لتملكني اليأس.

وأجابت ماريا كيريلوفنا بعبارة أعدَّتها من قبل: آمل ألَّا تجعلني أندم على تسامحي.

وصمت دوبروفسكي، وبدا وكأنه يلملم أطراف شجاعته، وأخيرًا قال: الظروف تقتضي ... يجب أن أتركك ... ربما تسمعين عما قريب ... ولكن قبل الفراق أريد أن أبوح لك بسر ...

ولم تجِب ماريا كيريلوفنا. لقد رأت في هذه الكلمات مقدِّمة للاعتراف المنتظر.

وواصل دوبروفسكي مطأطئ الرأس: إنني لست ما تظنين، لست الفرنسي ديفورج. أنا دوبروفسكي.

وندَّت عن ماريا كيريلوفنا صرخة.

– لا تخافي أرجوكِ، لا يجب أن تخافي من اسمي. نعم إنني ذلك التعيس الذي حرمه والدك كسرة الخبز وطرده من بيت أبيه ودفعه إلى نهب المسافرين في الطرق. ولكن لا داعي للخوف مني على نفسك أو عليه. لقد انتهى كل شيء. سامحته. اسمعي، أنتِ التي أنقذته ... فقد قُدر له أن يكون ضحية أول مأثرة دموية أقوم بها ... كنت أسير بجوار منزله محددًا من أين سأبدأ الحريق، ومن أين أدخل غرفة نومه، وكيف أسد عليه جميع سُبل الهرب. وفي تلك اللحظة مررتِ أنتِ بجواري كطيف سماوي، فاطمأن قلبي وأدركت أن المنزل الذي تعيشين فيه مقدَّس، وأن أي إنسان تربطه بك روابط الدم لا يمكن أن تحل به لعنتي. عدلت عن الانتقام باعتباره جنونًا. وأخذت أطوف أيامًا كاملة بجوار حدائق

بكروفسكويه، آملًا أن أرى على البعد ثوبك الأبيض، وراقبتك في جولاتك الجريئة متلصصًا من خميلة إلى خميلة سعيدًا لفكرة أني أحميك، وأنه لا خطر عليك في المكان الذي أوجد أنا فيه سرًّا. وأخيرًا سنحت الفرصة فكنت في منزلكم. لقد كانت هذه الأسابيع الثلاثة بالنسبة إليَّ أسعد أيامي، وستكون ذكراها سلوى حياتي الحزينة ... واليوم تلقيت نبأً يجعل بقائي هنا بعد الآن مستحيلًا ... إنني أفارقك اليوم ... الآن ... ولكن رأيت من واجبي قبل ذلك أن أكشف لكِ عن نفسي كي لا تلعنيني وتحتقريني. تذكري دوبروفسكي أحيانًا، واعرفي أنه ولد لحياة غير هذه، وأن قلبه عرف كيف يحبك، وأنه أبدًا لن ...

وهنا تردد صفير ضعيف فصمت دوبروفسكي ... ثم تناول يدها وضمها إلى شفتيه الملتهبتين. وتكرر الصفير.

قال دوبروفسكي: اعذريني، إنهم يدعونني، ودقيقة تأخير قد تقضي عليَّ.

وابتعد، وظلت ماريا كيريلوفنا واقفة بلا حراك، فعاد دوبروفسكي مرة ثانية وأمسك بيدها.

– لو مسَّكِ في أي وقت سوء — قال لها بصوت رقيق مؤثر — لو مسَّكِ في أي وقت سوء ولم تتوقعي من أحد معونة أو حماية، فهل تعدينني في هذه الحالة، أن تلجئي إليَّ وتطلبي مني كل ما تريدين من أجل إنقاذك؟ هل تعدينني ألَّا ترفضي إخلاصي؟

وبكت ماريا كيريلوفنا في صمت. وتكرر الصفير للمرة الثالثة فصرخ دوبروفسكي: إنكِ تقضين عليَّ! لن أتركك إلَّا إذا أجبتني ... هل تعدينني أم لا؟

– أعدك! همست الحسناء المسكينة.

وعادت ماريا كيريلوفنا من الحديقة وقد هزها لقاء دوبروفسكي. وخيِّل إليها أن الناس في هرج ومرج، فقد كان المنزل يضج بالحركة، وتجمع في الفناء خلق كثير ووقفت بجوار السلاملك عربة، وعلى البُعد سمعت صوت كيريلا بتروفيتش، فسارعت بدخول المنزل خشية أن يلحظوا تغيبها. وقابلها في الصالة كيريلا بتروفيتش، وكان الضيوف يحيطون برئيس الشرطة الذي تعرَّفنا عليه من قبل، ويمطرونه بالأسئلة. كان مرتديًا لباس سفر ومسلحًا من قمة رأسه حتى أخمص القدم، وأجاب عن الأسئلة متخذًا سيماء الغموض والعجلة.

وسأل كيريلا بتروفيتش: أين كنتِ يا ماشا؟ ألم تقابلي مسيو ديفورج؟

وبصعوبة استطاعت ماشا أن تجيب بالنفي.

فواصل كيريلا بتروفيتش قائلًا: تصوري ... لقد جاء الضابط للقبض عليه مؤكدًا أنه هو دوبروفسكي بعينه.

فقال الضابط باحترام: بكل أوصافه يا صاحب المعالي.

فقاطعه كيريلا بتروفيتش: إيه يا أخي … اذهب بأوصافك هذه إلى … لن أسلمك رجلي الفرنسي حتى أحقق في الأمر بنفسي. كيف يمكن تصديق كلام أنطون بافنوتيتش، هذا الجبان الكذَّاب؟ لقد خيل إليه أن المدرس أراد نهبه. ولماذا لم يقُل لي كلمة واحدة عن هذا في ذلك الصباح؟

أجاب الضابط: لقد أرهبه الفرنسي يا صاحب المعالي … وانتزع منه قسَمًا بالصمت …

– كذب — قرر كيريلا بتروفيتش — سأكشف الآن كل شيء … أين المدرس؟ سأل كيريلا بتروفيتش الخادم الداخل.

– لا نستطيع أن نجده في أي مكان. أجاب الخادم.

فصرخ ترويكورف وقد بدأ يراوده الشك: ابحثوا عنه … أرني ما لديك من الأوصاف الرائعة. قال للرئيس الذي قدَّم له الورقة في الحال.

– احم … احم … ثلاثة وعشرون عامًا … هو كذلك فعلًا، ولكن هذا لا يثبت شيئًا … ماذا عن المدرس؟

– غير موجود. جاءته الإجابة.

وبدأ كيريلا بتروفيتش يقلق، أما ماريا كيريلوفنا فكانت بين الحياة والموت.

وقال والدها ملاحظًا: إنكِ شاحبة يا ماشا. لقد أفزعوك.

فردَّت ماشا: كلا يا بابا … مجرد صداع.

– اذهبي يا ماشا إلى غرفتك ولا تقلقي.

فقبَّلت ماشا يده وأسرعت إلى غرفتها، فارتمت على الفراش وانفجرت في بكاء هستيري، وهبَّت إليها خادماتها فنزعن عنها ثيابها، وبجهد جهيد هدَّأنها بالماء البارد وشتَّى المنبهات، ثم مددنها على الفراش فغابت في النوم.

وطوال هذا الوقت لم يعثروا على الفرنسي، فأخذ كيريلا بتروفيتش يسير في الصالة جيئة وذهابًا وهو يصفر بغضب لحن: «زمجر يا رعد النصر». وتهامس الضيوف فيما بينهم، وأُسقط في يد الرئيس إذ لم يجدوا الفرنسي. وربما يكون قد تمكَّن من الهرب بعد أن حذره شخص ما، ولكن من الذي حذره؟ وكيف؟ ظل هذا لغزًا.

كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة ولم يفكِّر أحد في النوم، وأخيرًا قال كيريلا بتروفيتش للضابط بغضب: ماذا إذن؟ ليس من المعقول أن تبقى هنا حتى الصباح. إن داري ليست «تكية»، وليس بمثل مهارتك يا أخي أن تقبض على دوبروفسكي، إذا كان

هذا دوبروفسكي حقًّا. عُد من حيث أتيت، وفي المرة القادمة كن أكثر همَّة. ثم قال مخاطبًا الضيوف: وأنتم أيضًا آن لكم أن تنصرفوا. هيا دعوا الخدم يجهزون العربات، أما أنا فأريد أن أنام.

بمثل هذا الجفاء ودَّع ترويكورف ضيوفه!

الفصل الثالث عشر

مرَّ بعض الوقت دون أن يحدث شيء هام، ولكن في بداية الصيف التالي حدثت تغيرات كثيرة في حياة كيريلا بتروفيتش العائلية.

على بُعد ثلاثين فرسخًا منه كانت تقع ضيعة غنية يملكها الأمير فيرَيْسكي. وعاش هذا الأمير مدة طويلة في الخارج وكان يدير شئون ضيعته رائد متقاعد، ولم تنشأ أية علاقة بين ضيعتي بكروفسكويه وأرباتوفو. لكن الأمير عاد من الخارج في نهاية شهر مايو، وجاء إلى قريته التي لم يرَها طوال حياته. ولما كان متعودًا على الاختلاط فقد ضاق بالوحدة، وفي اليوم الثالث لوصوله رحل لتناول الغداء عند ترويكورف الذي كان قد تعرَّف عليه منذ أمد بعيد فيما مضى.

كان الأمير في حوالي الخمسين من عمره، ولكنه بدا أكبر من ذلك بكثير، فقد أضعفت مختلف ضروب الإفراط صحته وخلَّفت فيه آثارها التي لا تُمحى. وبالرغم من ذلك كان مظهره لطيفًا، رائعًا، كما أكسبه تعوده على الحياة دائمًا في المجتمع بعض اللطف، وخاصة مع النساء. كان يشعر بحاجة دائمة إلى الاختلاط، ويضجر باستمرار. وسُرَّ كيريلا بتروفيتش بزيارته للغاية معتبرًا إياها دليل احترام من شخص خبِر المجتمع الأرستقراطي. وكعادته أخذ ضيفه يعرض مؤسساته عليه، فقاده إلى حظائر الكلاب، ولكن الأمير كاد يختنق من رائحتها وأسرع خارجًا وهو يضع على أنفه منديلًا مضمخًا بالعطور، كذلك لم تعجبه الحديقة العتيقة بأشجار الزيزفون المقصوصة والبركة المستطيلة والممرات المنتظمة، فقد كان يحب الحدائق الإنجليزية وما يُدعى بالطبيعة. وبالرغم من ذلك أثنى على ما شاهده وأبدى إعجابه به. ثم جاء الخادم ليعلن أن الطاولة معدَّة، فعادوا لتناول الغداء. وسار الأمير وهو يعرج متعبًا من النزهة ونادمًا على هذه الزيارة.

ولكن ماريا كيريلوفنا قابلتهما إلى الصالة فصُعق زير النساء العجوز لجمالها. وأجلسه ترويكورف بجوارها فانتعش الأمير لوجودها وصار مرحًا، واستطاع جذب اهتمامها عدة مرات بحكاياته الشيقة. وبعد الغداء اقترح عليه كيريلا بتروفيتش نزهة على ظهور الجياد، ولكن الأمير اعتذر مشيرًا إلى حذائه العالي المصنوع من القطيفة وساخرًا من مرض النقرس، وفضَّل النزهة في العربة حتى لا يفترق عن جارته الرقيقة، فأُعدت العربة، وجلس العجوزان والحسناء ثم انطلقوا. ولم ينقطع حبل الحديث، وكانت ماريا كيريلوفنا تصغي باستمتاع إلى تحيات رجل المجتمع المرحة والمتملقة، عندما تحول هذا فجأة نحو كيريلا بتروفيتش وسأله عن ذلك المبنى المحترق وهل هو ملكه؟ وتجهَّم كيريلا بتروفيتش فقد كانت الذكريات التي أثارتها هذه الضيعة المحترقة بغيضة إلى نفسه، وأجاب بأن الضيعة أصبحت ملكه الآن، ولكنها كانت من قبل ملكًا لدوبروفسكي.

– دوبروفسكي ... — ردد فيريسكي — كيف؟ ملك لهذا الشقي المعروف؟

فأجاب ترويكورف: لأبيه ... وحتى أبوه كان أيضًا شقيًّا بما فيه الكفاية.

– وأين بطلنا رينالدو هذا، هل هو على قيد الحياة؟ وهل قُبض عليه؟

– على قيد الحياة ومطلق السراح، ولن يُقبض عليه ما دام رؤساء الشرطة عندنا شركاء للصوص. وبالمناسبة أيها الأمير، لقد سطا دوبروفسكي على ضيعتك أرباتوفو، أليس كذلك؟

– بلى، في العام الماضي، ويبدو أنه أحرق أو نهب شيئًا ما. أليس من الطريف يا ماريا كيريلوفنا أن يتعرف المرء إلى هذا البطل الرومانسي عن قرب؟

– أي طرافة في ذلك! — قال ترويكورف — لقد تعرفَت إليه، وظل يعلمها الموسيقى ثلاثة أسابيع كاملة، والحمد لله، لم يأخذ شيئًا لقاء الدروس.

وهنا أخذ كيريلا بتروفيتش يحكي قصة مدرسه الفرنسي، وجلست ماريا كيريلوفنا على أحر من الجمر، وأصغى فيرَيْسكي باهتمام كبير، واعتبر كل ذلك غريبًا للغاية فغيَّر موضوع الحديث. وعندما عادوا أمر بإعداد عربته ورحل بعد تناول الشاي مباشرة بالرغم من إلحاح كيريلا بتروفيتش عليه بالمبيت. وقبل رحيله دعا كيريلا بتروفيتش وماريا كيريلوفنا لزيارته، فوعده ترويكورف الفخور بالمجيء لأنه اعتبر الأمير فيرَيْسكي ندًّا له إلى حدٍّ ما، آخذًا بعين الاعتبار لقب الإمارة والوسامين، والثلاثة آلاف نفس التي يمتلكها الأمير.

وبعد يومين من زيارة الأمير فيرَيْسكي، توجه كيريلا بتروفيتش مع ابنته لزيارته. ولم يستطع وهم يقتربون من ضيعة أرباتوفو إلَّا أن يملي ناظريه من منازل الفلاحين النظيفة

البهيجة ومنزل السيد الحجري المشيد على طراز القصور الإنجليزية. وأمام المنزل امتد مرج كثيف الخضرة كانت ترعى فيه أبقار سويسرية بينما تصلصل أجراسها الصغيرة. وأحاطت بالمنزل من جميع الجهات حديقة واسعة. وقابل السيد ضيوفه على السلاملك، وقدَّم ذراعه لتعتمد عليها الحسناء الشابة. ثم دلفوا إلى صالة رائعة، مُدت فيها مائدة لثلاثة أشخاص. وقاد المضيف ضيوفه إلى النافذة فشاهدوا منها منظرًا خلابًا. كان نهر الفولجا يجري أمام النوافذ، وسارت فيه صنادل محمَّلة تملأ الريح أشرعتها، ولاحت قوارب الصيادين التي أطلقوا عليها اسمًا جدًّا معبِّر: «مهلكة الأرواح». وخلف النهر امتدت التلال والحقول، وبعثت عدَّة قرى الحياة في المكان. وبعد ذلك أخذوا يستعرضون مجموعات الصور التي اشتراها الأمير في الخارج. وشرح الأمير لماريا كيريلوفنا مضامينها المختلفة وتاريخ الفنانين الذين رسموها، مشيرًا إلى ميزاتهم وعيوبهم. كان يتحدث عن الصور لا بلسان المتحذلقين المعروف بل بعاطفة وخيال، فأصغت إليه ماريا كيريلوفنا باستمتاع. ثم جلسوا إلى الطاولة فأثنى كيريلا بتروفيتش على خمور صاحبه ومهارة طاهيه، أما ماريا كيريلوفنا فلم تشعر بأي حرج أو تكلف في الحديث مع شخص كانت تراه للمرة الثانية فقط. وبعد الغداء اقترح المضيف على ضيوفه أن يذهبوا إلى الحديقة. وهناك تناولوا القهوة في عريش على شاطئ بحيرة واسعة تزدحم بالجزر. وفجأة صدحت موسيقى صادرة عن آلات نفخ، ورسا قارب ذو ستة مجاديف بجوار العريش مباشرة فاستقلوه، وسبح بهم في البحيرة بجوار الجزر، فنزلوا في بعضها. ووجدوا في إحداها تمثالًا من المرمر، وفي جزيرة أخرى مغارة منعزلة، وفي الجزيرة الثالثة نصبًا عليه نقش غريب، أثار في ماريا كيريلوفنا فضول العذارى الذي لم تشبعه تمامًا تلميحات الأمير الوقورة. ومر الوقت بسرعة وبدأ الغسق يهبط، فتعلل الأمير بالبرودة والندى وأسرع عائدًا بهم إلى المنزل حيث كانت غلاية الشاي بانتظارهم. وطلب الأمير من ماريا كيريلوفنا أن تقوم بدور ربة البيت في دار الأعزب العجوز، فصبت الشاي وهي تصغي إلى قصص الثرثار الودود التي لا تنفد. فجأة دوى طلق ناري وأضاء السماء صاروخ، فقدَّم الأمير شالًا لماريا كيريلوفنا، ودعاها هي وترويكورف إلى الشرفة. وأمام المنزل اندلعت في الظلام أضواء متعددة الألوان كانت تدور ثم تصعد إلى أعلى بهيئة سنابل ونخيل ونافورات ثم تسقط كالمطر والنجوم وتنطفئ لتندلع من جديد. وابتهجت ماريا كيريلوفنا كالطفل، وسُرَّ الأمير فيريسكي لإعجابها، أما ترويكورف فكان في غاية الرضا عنه لأنه اعتبر كل دفعات (Tous les frais) الأمير دليلًا على احترامه له ومحاولته خطب وده.

ولم يكن العشاء أقل بذخًا من الغداء، ثم توجه الضيوف بعده إلى الغرف المخصصة لهم، وفي الصباح ودَّعوا المضيف الفاضل وقد تواعدوا على أن يروا بعضهم البعض قريبًا.

الفصل الرابع عشر

جلست ماريا كيريلوفنا في غرفتها أمام النافذة المفتوحة تطرز بواسطة أطواق التطريز. ولم تخلط بين ألوان الحرير كما فعلت حبيبة «كوانراد»[1] عندما طرزت الوردة بحرير أخضر وقد شتت الحب ذهنها. لقد كانت الإبرة في يدها تكرر دون خطأ نفس الخطوط المرسومة في الأصل، وبالرغم من ذلك لم تكن أفكارها تتابع عملها هذا، بل حلقت في مكان بعيد.

وفجأة امتدت يد إلى النافذة بهدوء، ووضع صاحبها رسالة فوق أطواق التطريز، ثم اختفى قبل أن تفيق ماريا كيريلوفنا من المفاجأة. وفي هذه اللحظة بالذات دخل الخادم غرفتها ودعاها إلى كيريلا بتروفيتش. فخبأت الرسالة باضطراب خلف منديل رأسها وأسرعت لمقابلة أبيها في مكتبه.

لم يكن كيريلا بتروفيتش بمفرده، بل كان معه الأمير فيريسكي. وعندما دخلت ماريا كيريلوفنا وقف الأمير، وانحنى لها بصمت واضطراب غير عادي بالنسبة إليه.

وقال كيريلا بتروفيتش: تعالي هنا يا ماشا ... سأزفُّ إليك نبأً آمل أن يسعدك. ها هو عريسك ... لقد تقدم الأمير لخطبتك.

وجمدت ماشا واكتسى وجهها بصفرة الأموات. ووقفت صامتة. واقترب منها الأمير فأمسك بيدها وسألها بنبرة تنم عن التأثر هل توافق على أن تُسْعِدَه. وصمتت ماشا.

فقال كيريلا بتروفيتش: إنها موافقة، طبعًا موافقة، ولكن أتدري أيها الأمير، يصعب على الفتاة أن تتفوه بهذه الكلمة ... هيا يا أولاد، تبادلا القبلات، ولتنعما بالسعادة.

[1] «كونراد فالينرود» قصيدة للشاعر البولوني آدم ميتسكيفيتش (١٧٩٨–١٨٥٥م). وكانت بطلة القصيدة قد طرزت الوردة بالحرير الأخضر والأوراق بالأحمر لأن الفراق عن حبيبها جعلها تشعر بالحنين وشتت ذهنها.

ووقفت ماشا جامدة، وقبَّل الأمير العجوز يدها، وفجأة انهمرت الدموع على خدَّيها الشاحبين، فتجهَّم الأمير قليلًا.

قال كيريلا بتروفيتش: هيا، هيا، اذهبي وجففي دموعك، وعودي إلينا مرحة. ثم قال مخاطبًا الأمير: كلهن يبكين عند الخطبة ... تلك عادتهن ... والآن، فلنتحدث عن المهم يا أمير ... أعني عن البائنة.[٢]

وأسرعت ماريا كيريلوفنا تستغل الإذن بالانصراف، فهرولت إلى حجرتها، وأغلقت عليها الباب، وأطلقت لدموعها العِنان. وعندما تخيلت نفسها زوجة للأمير العجوز، بدا لها منفرًا وبغيضًا. وأفزعها الزواج وكأنه مقصلة أو قبر. «كلا، كلا — رددت وقد غلبها اليأس — من الأفضل أن أموت، أو أهب نفسي للدير، أو أتزوج من دوبروفسكي.» وهنا تذكرت تلك الرسالة فبدأت تقرؤها بنهم، وهي تحدس أنها منه. وفعلًا كانت رسالة منه، لم تتضمن غير الكلمات التالية:

«في العاشرة مساء، في نفس المكان.»

[٢] البائنة هي «الدوطة» التي تقدمها العروس. (المترجم)

الفصل الخامس عشر

تألق القمر — فقد كانت ليلة هادئة من ليالي شهر يوليو — وأحيانًا كانت تهب الريح، فيتردد حفيف رقيق في الحديقة كلها.

وكطيف رقيق اقتربت الحسناء الشابة من مكان الموعد المضروب، ولم يكن هناك أحد بعد، وفجأة ظهر أمامها دوبروفسكي من خلف العريش.

وقال لها بصوت هادئ حزين: إنني أعرف كل شيء. تذكري وعدك لي.

فأجابت ماشا: أنت تعرض عليَّ الحماية، ولكن، لا تغضب، إنها تفزعني، كيف يمكنك أن تقدِّم لي المعونة؟

– بوسعي أن أخلصك من الرجل البغيض.

– أستحلفك بالله ألَّا تمسه، إياك أن تمسه بسوء إذا كنت تحبني. لا أريد أن أكون سببًا في عمل فظيع.

– لن أمسه، فرغبتك عندي مقدسة. إنه مدين بحياته لك، ولن أرتكب باسمك أية جريمة؛ إذ يجب أن تظلي طاهرة لا تلطخك حتى جرائمي. ولكن كيف أخلِّصك من أبيك القاسي؟

– ما زال هناك أمل. أرجو أن أؤثر فيه بدموعي ويأسي. إنه عنيد، ولكنه يحبني جدًّا.

– لا تتعلقي بآمال زائفة، ففي هذه الدموع لن يرى أبوك غير الخوف والنفور الطبيعي المميز لكل الفتيات الشابات عندما يتزوجن لا عن حب، بل عن منفعة تمليها الحكمة. فما العمل إذا أصرَّ على بناء سعادتك رغمًا عنك ودفعك عنوة إلى تسليم مصيرك إلى الأبد لسلطان زوج عجوز؟

– عندئذٍ، عندئذٍ لا مفر ... تعالَ خذني وسأصبح زوجتك.

واضطرب دوبروفسكي، وغطت وجهه الشاحب حُمرة قانية، وفي نفس اللحظة عاد أكثر شحوبًا من ذي قبل، وظلَّ صامتًا فترة طويلة، مطأطأ الرأس.

– استجمعي كل قواكِ الروحية، وتوسلي إلى أبيك، ارتمي على قدميه، صوري له كل بشاعة المستقبل، وشبابك الذي سيذبل مع عجوز منحل داعر. استعدي لمصارحة قاسية. قولي له إنه إذا لم يستجب فإنك ... فإنك ستلجئين إلى حماية فظيعة ... قولي له إن الثروة لن تجلب لك دقيقة واحدة من السعادة، وإن البذخ لا يطمئن إلَّا الفقر، ولا يطمئنه إلَّا للوهلة الأولى وللحظة واحدة. لا تتركيه، ولا تخشي غضبه أو وعيده. وما دام هناك ولو ظل أمل أستحلفك بالله لا تتركيه ... أما إذا لم تبقَ هناك وسيلة أخرى ...

وهنا غطى دوبروفسكي وجهه بيديه، وبدا وكأنه يختنق ... وبكت ماشا ...

وقال بمرارة وهو يشهق: يا لحظي التعيس ... إنني مستعد أن أضحي بحياتي من أجلك، وكانت قمة نشوتي أن أراكِ على البعد، أو ألمس يدك. وعندما لاحت أمامي الفرصة لكي أضمك إلى قلبي الخافق وأقول: يا ملاكي، معًا حتى الموت! أجد من واجبي — ويا لي من يائس — أن أتجنب النعمة، أجد لزامًا عليَّ أن أبعدها عني بكل قواي. إنني لا أجرؤ على الارتماء على قدميك لأشكر السماء على هبتها التي لا أستحقها. أوه، كم يجب عليَّ أن أكره ذلك الشخص، ولكني أشعر أنه لم يعد في قلبي مكان للكراهية.

وأحاط بقدِّها المشوق بخفة وضمها إلى قلبه، فوضعت رأسها بأمان على كتف قاطع الطريق الشاب. وصمت كلاهما.

ومرَّ الوقت بسرعة.

وأخيرًا قالت ماشا: آن لي أن أنصرف.

وبدا كما لو أن دوبروفسكي استيقظ من غفوة. ثم تناول يدها ووضع في إصبعها خاتمًا وقال: إذا قررت اللجوء إلى مساعدتي، فاحملي هذا الخاتم إلى هنا، وضعيه في تجويف شجرة البلوط هذه، وعندئذٍ سأعرف ماذا ينبغي أن أفعل.

وقبَّل دوبروفسكي يدها واختفى بين الأشجار.

الفصل السادس عشر

لم تعد خطبة الأمير فيرَيْسكي لماشا سرًّا بالنسبة إلى الجيران، فانهالت التهاني على كيريلا بتروفيتش، بينما كان يجري الاستعداد للعُرس. وكانت ماشا تؤجل قرارها الحاسم من يوم إلى آخر. وفي الوقت نفسه كانت معاملتها للعريس العجوز باردة ومتكلِّفة، ولم يهتم الأمير بذلك، فلم يكن يطمح في حبها، بل كان قانعًا بموافقتها الصامتة.

غير أن الوقت كان يمر، فقررت ماشا أخيرًا أن تتحرك، فكتبت رسالة للأمير فيرَيْسكي. وحاولت أن تثير فيه المروءة، واعترفت له بصراحة أنها لا تشعر بأي ميل نحوه، وتوسلت إليه أن يعدل عن طلب يدها، بل ويحميها من سلطان أبيها. ودست الرسالة سرًّا في يد الأمير فيريسكي، فقرأها عندما خلا بنفسه ولم تؤثر فيه مطلقًا صراحة عروسه، على العكس، لقد ارتأى ضرورة الإسراع بالزفاف، ولهذا اعتبر من المفيد أن يطلع حماه المقبل على الرسالة.

وجُن جنون كيريلا بتروفيتش، وبعد لأي تمكن الأمير من إقناعه بألَّا يظهر لماشا علمه بأمر الرسالة فوافق كيريلا بتروفيتش على ذلك، ولكنه قرر ألَّا يضيع الوقت وحدد اليوم التالي مباشرة موعدًا للزفاف. واعتبر الأمير هذا القرار جد حكيم، فذهب إلى عروسه وأخبرها أن رسالتها أحزنته كثيرًا، ولكنه يأمل أن يكسب ميلها بمرور الزمن، وأن فكرة فقدانها شديدة الوقع عليه، وليس في إمكانه أن يوافق على مثل هذا الحكم بإعدامه. وبعد ذلك لثم يدها في وقار، ثم رحل دون أن يقول لها كلمة واحدة عن قرار كيريلا بتروفيتش.

وما كاد يرحل عن المنزل حتى دخل إليها والدها وأمرها دون مقدمات أن تكون مستعدة غدًا. وكانت ماريا كيريلوفنا مضطربة بعد حديث الأمير فيريسكي، فانخرطت في البكاء وارتمت على قدمي والدها، وصرخت بصوت ضارع: بابا، بابا، لا تقضِ عليَّ، أنا لا أحب الأمير، لا أريد أن أكون زوجة له.

فقال كيريلا بتروفيتش مهددًا: ما معنى هذا؟ لقد كنت حتى الآن موافقة ولا تتكلمين، والآن، عندما تقرر كل شيء، عنَّت لكِ هذه النزوة وهذا الرفض. دعيك من هذه الحماقة فلن يجدي هذا معي.

– لا تقضِ عليَّ — رددت ماشا المسكينة — لماذا تطردني بعيدًا عنك وتسلمني لشخص لا أحبه؟ هل مللتني؟ أريد أن أبقى معك كما كنا. بابا، ستشعر بالحزن بدوني، وستحزن أكثر عندما تفكر بأني تعيسة. بابا، لا تُكرهني على الزواج، فأنا لا أريده.

وتأثر كيريلا بتروفيتش، لكنه أخفى اضطرابه، ودفعها عنه قائلًا بصرامة: كل هذا هراء، أتسمعين؟ أنا أعرف أحسن منك ما هو المطلوب لسعادتك، لن تنفعك الدموع، زفافك بعد غد.

فصرخت ماشا: بعد غد، يا إلهي! كلا، كلا، مستحيل، هذا لن يكون. اسمع يا بابا … إذا كنت قد قررت القضاء عليَّ فسوف ألجأ لحماية شخص لا يخطر لك ببال، سوف ترى، وسيصيبك الفزع عندما تعرف إلى أي حد دفعتني.

– ماذا، ماذا؟ — قال ترويكورف — أتهددينني؟ يا لكِ من بنت جسورة! أتدرين أنني سأصنع بك ما لا تتصورين؟ أتجرُئِين على إرهابي بشخص يحميك؟ سنرى من يكون هذا الحامي!

فأجابت ماشا وقد غلبها اليأس: إنه فلاديمير دوبروفسكي.

وظن كيريلا بتروفيتش أنها جنَّت، ونظر إليها مصعوقًا.

ثم قال بعد فترة من الصمت: حسنًا، انتظري ما شئت من مخلصين، ولكنك ستبقين في هذه الغرفة، ولن تخرجي منها إلَّا يوم الزفاف.

وبعد أن قال كيريلا بتروفيتش هذه الكلمات خرج، وأغلق خلفه الباب.

وبكت الفتاة المسكينة طويلًا وهي تتخيل ما ينتظرها، غير أن هذه المصارحة العنيفة هدَّأت من روعها، فأصبح بوسعها أن تفكر بهدوء أكثر في مستقبلها وفيما ينبغي عليها أن تفعله. كان أهم شيء عندها أن تتخلص من هذا الزواج البغيض. وبدا لها أن مصيرها كزوجة قاطع طريق جنَّة إذا ما قيس بما أعدَّه لها القدَر. ونظرت إلى الخاتم الذي أعطاه لها دوبروفسكي، وتملكتها رغبة عارمة في رؤيته على انفراد لتستشيره طويلًا مرة أخرى قبل اللحظة الحاسمة. وراودها شعور داخلي بأنها ستجد دوبروفسكي مساءً في الحديقة قرب العريش، فقررت أن تذهب إلى هناك بعد حلول الظلام وتنتظره. وحل الظلام فاستعدت ماشا، لكن باب غرفتها كان مقفلًا بالمفتاح، وأخبرتها الخادمة عبر الباب

أن كيريلا بتروفيتش أمرهم بعدم السماح لها بالخروج. لقد كانت معتقلة. وجلست إلى النافذة، وقد شعرت بإهانة عميقة، ولم تخلع ملابسها إلى وقت متأخر وظلت تحدق جامدة في السماء المظلمة. ونامت عند الفجر، غير أن الأحلام الحزينة أقلقت نومها الخفيف، ثم أيقظتها أشعة الشمس المشرقة.

الفصل السابع عشر

وعندما استيقظت، كان أول ما خطر على ذهنها هو فظاعة الوضع الذي وجدت نفسها فيه. ودقت الجرس فدخلت خادمتها وردَّت على أسئلتها، قائلة إن كيريلا بتروفيتش ذهب إلى أرباتوفو مساءً وعاد في ساعة متأخرة، وأعطى أوامره مشدَّدة بعدم السماح لها بالخروج من الغرفة أو الاتصال بأي إنسان، كما ذكرت أنها لم تلحظ أية استعدادات معيَّنة لحفل الزفاف، سوى الأمر الذي صدر إلى الراهب بعدم مغادرة الضيعة لأي سبب من الأسباب. وبعد هذه الأنباء، انصرفت الخادمة عن ماريا كيريلوفنا وأوصدت خلفها الباب من جديد.

لكن كلماتها أثارت السجينة الشابة فكاد رأسها ينفجر، وأخذ دمها يفور، وقررت أن تحيط دوبروفسكي علمًا بالأمر كله، وراحت تبحث عن وسيلة لوضع الخاتم في تجويف شجرة البلوط المنشودة. وفي هذه اللحظة ارتطمت حصوة بنافذتها ورنَّ الزجاج. فنظرت ماريا كيريلوفنا إلى الفناء ورأت ساشا الصغير وهو يوجه لها إشارات سريَّة، ففتحت النافذة وقالت: كيف حالك يا ساشا؟ لماذا تدعوني؟

– لقد جئت يا أختي لأعرف إن كنت بحاجة إلى شيء. إن أبانا غاضب، وقد منع الجميع من الاتصال بك، ولكن اطلبي مني أي شيء وسأفعله من أجلك.

– شكرًا يا ساشا العزيز ... اسمع ... هل تعرف شجرة البلوط ذات التجويف، والتي بجوار العريش؟

– أعرفها يا أختي.

– حسنًا، إذا كنت تحبني أسرع إلى هناك وضع في التجويف هذا الخاتم، واحذر أن يراك أحد.

ثم ألقت إليه بالخاتم وأغلقت النافذة.

والتقط الصبي الخاتم وانطلق يعدو بكل قواه، فوصل إلى الشجرة المطلوبة في ثلاث دقائق. وهناك توقف وهو يلهث، ثم تلفَّت حوله، وبعد ذلك وضع الخاتم في التجويف. وبعد تأدية المهمة بنجاح أراد أن يبلغ ماريا كيريلوفنا بذلك في الحال، غير أنه ظهر فجأة من خلف العريش صبي أحمر الشعر، أحول العينين، ممزق الثياب، وانقض على الشجرة، ودس يده في التجويف، فاندفع ساشا نحوه بأسرع من السنجاب، وأمسكه بكلتا يديه.

وقال متوعدًا: ماذا تفعل هنا؟

– وما دخلك أنت؟ أجاب الصبي وهو يحاول التخلص منه.

فصرخ ساشا: دع هذا الخاتم أيها الأرنب الأحمر، وإلَّا أعطيتك درسًا لن تنساه.

وبدلًا من الإجابة سدد إليه الصبي لكمة في وجهه، لكن ساشا لم يدعه يفلت، وصرخ بأعلى صوته: حرامي، حرامي ... أسرعوا ... أسرعوا ...

وحاول الصبي أن يتخلص منه، وكان فيما يبدو أكبر من ساشا بعامين، وأقوى منه بكثير، لكن ساشا كان أمهر منه.

وتصارعا بضع دقائق، ثم تغلَّب الصبي عليه في النهاية، فطرحه أرضًا وأطبق بيديه على رقبته.

ولكن في تلك اللحظة، امتدت يد قوية، فأمسكت بشعره الأحمر الخشن، ورفعه البستاني ستيبان فوق الأرض بنصف ذراع ...

وقال البستاني: آه، أيها الشيطان الأحمر ... كيف تجرؤ على ضرب السيد الصغير ...

واستطاع ساشا أن ينهض ويتأهب من جديد، ثم قال: لقد أمسكتني من تحت إبطي وإلَّا لما طرحتني أبدًا. أعطني الخاتم واغرب من هنا.

– مستحيل! أجاب الصبي الأحمر، واستدار فجأة من مكانه، فحرر شعره من يد ستيبان.

وانطلق يركض، لكن ساشا لحق به ودفعه في ظهره فسقط بشدة. وقبض عليه البستاني مرة أخرى وأوثقه بحزامه.

وصرخ ساشا: هات الخاتم!

– انتظر يا سيدي — قال ستيبان — فلنأخذه إلى الوكيل ليعاقبه.

وقاد البستاني أسيره إلى فناء منزل السيد، وصاحبه ساشا وهو ينظر بقلق إلى سرواله الذي تمزق ولوثه العشب. وفجأة وجدوا أنفسهم أمام كيريلا بتروفيتش، الذي كان ذاهبًا لتفقد إصطبله.

ووجه السؤال إلى ستيبان: ما هذا؟

وشرح له ستيبان ما حدث في كلمات قليلة.

وأصغى إليه كيريلا بتروفيتش باهتمام، ثم قال مخاطبًا ساشا: لماذا اشتبكت معه أيها الشقي؟

– لقد سرق الخاتم من التجويف ... مُرْهُ أن يعطيني الخاتم يا بابا.

– أي خاتم؟ ومن أي تجويف؟

– خاتم ماريا كيريلوفنا ... ذلك الخاتم ...

واضطرب ساشا وارتبك، وتجهم كيريلا بتروفيتش وهو يهز رأسه: إن لماريا كيريلوفنا ضلعًا في هذا الأمر ... هيا اعترف بكل شيء، وإلَّا ألهبت ظهرك بعود أخضر، لن تتعرف بعده حتى على أبويك.

– والله يا بابا، أنا يا بابا ... ماريا كيريلوفنا لم تأمرني بشيء يا بابا ...

– اذهب يا ستيبان واقطع عودًا طريًّا جيدًا من شجرة بتولا.

– انتظر يا بابا، سأقول كل شيء. كنت أركض اليوم في الفناء، وفتحت أختي ماريا كيريلوفنا النافذة فاقتربت منها، وعندئذٍ سقط منها خاتم عفوًا، فأسرعت أخفيه في التجويف ... و... أراد هذا الصبي الأحمر أن يسرقه.

– سقط منها عفوًا، ومع ذلك أردت أن تخفيه ... أحضر العود يا ستيبان.

– انتظر يا بابا، سأحكي كل شيء. لقد طلبت مني أختي ماريا كيريلوفنا أن أذهب إلى شجرة البلوط وأضع الخاتم في التجويف، فأسرعت إلى هناك ووضعته ... لكن هذا الصبي الملعون ...

والتفت كيريلا بتروفيتش إلى الصبي الملعون وسأله متوعدًا: صبي من أنت؟

– أنا خادم السادة آل دوبروفسكي. أجاب الغلام الأحمر.

واكفهر وجه كيريلا بتروفيتش: يبدو أنك لا تعترف بسيادتي ... حسنًا، وماذا كنت تفعل في حديقتي؟

فأجاب الصبي بلامبالاة فائقة: كنت أسرق التوت.

فقال كيريلا بتروفيتش ملاحظًا: آها ... الخادم كسيده ... المصلُّون مثل إمامهم ... وهل تطرح أشجار البلوط عندي توتًا؟

ولم ينبس الصبي بكلمة.

– دعه يا بابا يسلِّم الخاتم. قال ساشا.

– اسكت يا ألكساندر — أجاب كيريلا بتروفيتش — لا تنسَ أنني سأعطيك علقة. اذهب الآن إلى غرفتك. أما أنت أيها الأحول فتبدو لي فتًى مجربًا ... هات الخاتم وعُد إلى دارك.

وفتح الصبي قبضته ليظهر له أنه لا يخفي شيئًا.

– لو اعترفت لي بكل شيء فلن أجلدك، بل سأعطيك خمس كوبيكات لتشتري بها بندقًا، وإذا لم تعترف فستنال مني شر عقاب. هيا!

ولكن الصبي لم ينبس ببنت شفة وظل واقفًا مطأطأ الرأس، ومتظاهرًا بأنه أبله تمامًا.

فقال كيريلا بتروفيتش: حسنًا، اسجنوه، واحرصوا ألَّا يهرب، وإلَّا سلخت جلدكم جميعًا.

وقاد ستيبان الصبي إلى برج الحمام، وأغلق عليه الباب وأمر مربية الطيور العجوز أجافيا بحراسته.

وقال كيريلا بتروفيتش بعد أن شيَّع الغلام بنظراته: اذهب حالًا إلى المدينة وأحضر رئيس الشرطة بأسرع ما يمكن.

«ليس هناك شك في أنها على علاقة بدوبروفسكي الملعون، ولكن أَمِن المعقول أنها استنجدت به حقًّا؟ فكر كيريلا بتروفيتش وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابًا مصفرًا بغضب لحن: «زمجر يا رعد النصر»، ربما أكون قد وقعت أخيرًا على أثره، ولن يفلت منا. سنستغل هذه الفرصة! انظر، ها هو صوت ناقوس. الحمد لله! إنه الرئيس!».

– هاتوا الصبي هنا.

وفي هذه اللحظة وصلت إلى الفناء عربة تُقلُّ الرئيس الذي تعرَّفنا عليه من قبل. ودخل الغرفة وقد غطاه الغبار.

وقال كيريلا بتروفيتش:

– نبأ رائع ... لقد قبضت على دوبروفسكي.

– الحمد لله يا صاحب المعالي — قال الرئيس مبديًا فرحته — وأين هو؟

– ليس على دوبروفسكي نفسه، بل واحد من عصابته. سيأتون به حالًا. وسوف يساعدنا في القبض على الزعيم نفسه. ها هم قد جاءوا به.

كان الرئيس يتوقع رؤية قاطع طريق مرعب، فصُعق عندما رأى صبيًّا في الثالثة عشرة من عمره، ضعيف البنية إلى حد كبير، فالتفت إلى كيريلا بتروفيتش متحيرًا وانتظر

منه تفسيرًا. وفي الحال شرع كيريلا بتروفيتش يروي له ما حدث في الصباح دون الإشارة، مع ذلك، إلى ماريا كيريلوفنا.

وأصغى الرئيس باهتمام وهو ينقل بصره كل لحظة إلى الشقي الصغير الذي تظاهر بالغباء، وبدا غير مهتم مطلقًا بكل ما كان يدور حوله.

وأخيرًا قال الضابط: هل تسمح لي يا صاحب المعالي أن أتحدث إليك على انفراد؟

فقاده كيريلا بتروفيتش إلى غرفة أخرى، وأغلق خلفهما الباب.

وبعد نصف ساعة عادا ثانية إلى الصالة حيث كان الأسير ينتظر تقرير مصيره.

وتوجه إليه الرئيس قائلًا: لقد أراد السيد أن يضعك في سجن المدينة حيث يجلدونك ثم ينفونك بعد ذلك إلى سيبيريا، لكني تشفعت لديه وحصلت لك على عفو منه. فكوا وثاقه.

– هيا اشكر السيد. قال الرئيس.

وتقدَّم الصبي إلى كيريلا بتروفيتش فقبَّل يده.

– عد إلى دارك — قال له كيريلا بتروفيتش — وإياك أن تعود إلى سرقة التوت من شجر البلوط.

وخرج الصبي، وقفز من السلاملك بمرح، وانطلق يركض عبر الحقل إلى كيستينيوفكا دون أن يلتفت خلفه. وعندما وصل إلى القرية، توقف عند أول بيت في طرفها، وكان شبه مهدَّم، وطرق النافذة فانفتحت وظهرت فيها امرأة عجوز.

قال الصبي: أعطني كسرة خبز يا جدتي، منذ الصباح لم أذُق شيئًا. أكاد أموت من الجوع.

– أهذا أنت ميتيا، أين اختفيت أيها العفريت؟ أجابت العجوز.

– سأخبرك فيما بعد يا جدتي … كسرة خبز أرجوك.

– ألا تدخل إلى الدار؟

– لا وقت عندي يا جدتي … عليَّ أن أذهب إلى مكان آخر … كسرة خبز بحق المسيح … كسرة خبز.

– يا لك من عجول — همهمت العجوز — خذ، ها هي كسرة الخبز. وناولته من النافذة كسرة من خبز أسود.

والتهمها الصبي بشراهة وانطلق مواصلًا ركضه وهو يمضغها.

أخذ الغسق يهبط، وتوجه ميتيا إلى غيضة كيستينيوفكا عبر حدائق الخضروات ومخازن الحبوب، وعندما وصل إلى شجرتي الصنوبر القائمتين بمثابة حرس أمامي

للغيضة توقف، وتلفَّت حوله في جميع الجهات وأطلق صفيرًا حادًّا متقطعًا ثم أرهف السمع. ورد عليه صفير خافت طويل، ثم خرج أحدهم من الغيضة وتقدم نحوه.

الفصل الثامن عشر

راح كيريلا بتروفيتش يذرع الصالة جيئة وذهابًا، وهو يصفر لحنه بأعلى من المعتاد. وكان المنزل كله يموج بالحركة. الخدم يهرولون، والوصيفات في هرج ومرج، والحوذية يجهزون العربة في حظيرة. وامتلأ الفناء بالناس. وفي غرفة ابنة السيد، وقفت إحدى السيدات أمام المرايا، تحيط بها الخادمات وأخذت تزيِّن ماريا كيريلوفنا المتصلبة، والتي مال رأسها بضعف تحت وطأة المجوهرات، وكلما وخزتها المصففة دون قصد، ارتعش بدنها رعشة خفيفة. لكنها ظلَّت صامتة تحدق في المرآة، دون أن ينم وجهها عن أي شيء.

وتردد صوت كيريلا بتروفيتش عند الباب: هل ستنتهون قريبًا؟

– حالًا — أجابت السيدة — انهضي يا ماريا كيريلوفنا، وانظري هل يعجبك هذا؟

ونهضت ماريا كيريلوفنا، ولم تقُل شيئًا. وفُتح الباب.

– العروس جاهزة — قالت السيدة لكيريلا بتروفيتش — مُرْ بالجلوس في العربة.

– في رعاية الله. أجاب كيريلا بتروفيتش، ثم تناول من على المنضدة أيقونة، وقال لماشا بنبرة تأثر: تعالي هنا يا ماشا ... إنني أباركك.

وارتمت الفتاة المسكينة على قدميه وأجهشت بالبكاء: بابا ... بابا ... قالت خلال الدموع ثم احتبس صوتها.

وأسرع كيريلا بتروفيتش يباركها، ثم أنهضوها ومضوا بها وهم يكادون يحملونها حملًا فأجلسوها في العربة، وجلست معها عرابة العُرس وإحدى خادماتها وتوجهوا إلى الكنيسة، حيث كان العريس في انتظارهم. وخرج لملاقاة عروسه فأذهله شحوبها ومظهرها الغريب. ثم دخلا معًا إلى الكنيسة الباردة الخاوية. وأغلقت خلفهم الأبواب. وخرج الراهب من الهيكل وشرع توًّا في إجراء الطقوس. ولم تكن ماريا كيريلوفنا ترى أو تسمع شيئًا، فقد

كانت تفكر في شيء واحد وتنتظر دوبروفسكي منذ الصباح. لم تفقد الأمل لحظة واحدة، ولكن عندما توجه إليها الراهب بالسؤال التقليدي ارتعشت وجمدت وأبطأت في الرد، فما زالت تنتظر. ولما لم يحصل الراهب منها على جواب نطق بالحكم الذي لا رجعة فيه.

وانتهت الطقوس، وأحست بقبلة الزوج الكريه الباردة. وسمعت تهاني الحاضرين المرحة، لكنها لم تستطع بعد أن تصدق أن حياتها دُفنت إلى الأبد، وأن دوبروفسكي لم يهب لتحريرها. وقال لها الأمير كلمات رقيقة لم تفهمها. ثم خرجوا من الكنيسة التي كان فناؤها مزدحمًا بفلاحي بكروفسكويه، فألقت عليهم نظرة سريعة، عادت بعدها إلى جمودها السابق. وجلس العروسان في العربة معًا وتوجها إلى أرباتوفو، التي كان قد سبقهما إليها كيريلا بتروفيتش ليقابل العروسين هناك. وعندما خلا الأمير إلى زوجته الشابة لم يتأثر مطلقًا بمظهرها البارد، ولم يضجرها بكلمات الحب المعسولة أو الإطراء المضحك، بل كانت كلماته بسيطة لا تتطلب ردًّا. وقطعوا على هذه الحال حوالي عشرة فراسخ، والخيل تركض بسرعة على الطريق الريفي غير المستوي، لكن العربة لم تكن تهتز تقريبًا بفضل لوالبها الإنجليزية. وفجأة ترددت أصوات مطاردة وتوقفت العربة وأحاطت بها ثلَّة من الرجال المسلحين، ثم تقدَّم رجل في قناع نصفي ففتح باب الجانب الذي جلست فيه الأميرة الشابة وهو يقول لها: أنتِ الآن حرة اخرجي.

فصرخ الأمير: ما معنى هذا؟ من تكون أنت؟

– إنه دوبروفسكي. قالت الأميرة.

ولم يفقد الأمير رباطة جأشه فاستلَّ من جيبه مسدس سفر، وأطلق النار على قاطع الطريق المقنَّع، وصرخت الأميرة وهي تخفي وجهها بكلتا يديها فزعًا. وجرح دوبروفسكي في كتفه وأخذت دماؤه تسيل. ولم يضيع الأمير لحظة أخرى فاستلَّ مسدسه الثاني، لكنهم لم يمهلوه حتى يطلق النار، إذ فُتح باب العربة، وامتدت عدة أيدٍ قوية فأخرجته من العربة وانتزعت منه المسدس، ولمعت فوق رأسه الخناجر.

فصرخ دوبروفسكي: إياكم أن تمسُّوه.

فتراجع رفاقه العابسون.

وواصل دوبروفسكي مخاطبًا الأميرة الشابة: أنت الآن حرة.

– كلا، فات الأوان، لقد أصبحت زوجة الأمير فيرَيْسكي.

– ماذا تقولين — صرخ دوبروفسكي يأسًا — كلا، لست زوجته. لقد أجبروكِ على الزواج، ولا يمكن أبدًا أن تكوني قد وافقتِ …

فعارضته الأميرة بصلابة: لقد وافقت، وأقسمْت اليمين. إن الأمير زوجي! فلتأمر بإطلاق سراحه، ودعني أمضي معه. أنا لم أخدعك، وانتظرتك حتى آخر لحظة. ولكني الآن أقول لك: لقد فات الأوان. دعنا نرحل.

لكن دوبروفسكي لم يكن يسمعها، فقد خارت قواه من الألم والاضطراب النفسي الشديد. وسقط بجوار العجلة فأحاط به قطَّاع الطريق، واستطاع أن يقول لهم بضع كلمات، فأركبوه على الحصان، وسنده اثنان منهم بينما قاد الثالث الحصان، وانطلقوا جميعًا راحلين، تاركين العربة وسط الطريق، بعد أن أوثقوا الخدم وفكوا الخيول، غير أنهم لم يسرقوا شيئًا، ولم يريقوا قطرة دم واحدة انتقامًا لدماء زعيمهم.

الفصل التاسع عشر

وسط غابة كثيفة، وعلى مرج ضيق، ارتفع استحكام ترابي صغير مكون من جسر وخندق، ومن خلفه امتدت عدة أكواخ وخنادق مسقوفة.

واجتمع في الفناء عدد كبير من الناس يمكنك بنظرة إلى ملابسهم المتنوعة وأسلحتهم المختلفة أن تتعرف فيهم فورًا على قطَّاع الطريق. وكانوا يتناولون غداءهم وهم جالسون حاسري الرءوس بجوار قدر الطعام الجماعي. وعلى الجسر جلس القرفصاء حارس بجوار مدفع صغير، وأخذ يرقع قطعة معينة من ملابسه بمهارة تنم عن خياط خبير، وكان يتلفت في جميع الجهات بين لحظة وأخرى.

وبالرغم من أن دورقًا معينًا تنقل عدة مرات من أيدٍ إلى أخرى، إلَّا أن صمتًا غريبًا خيَّم على هذه الجماعة. لقد تغدَّى قُطَّاع الطريق، ثم نهض الواحد منهم تلو الآخر فصلُّوا للرب، وانصرف بعضهم إلى الأكواخ، وانطلق البعض الآخر يضرب في الغابة أو استلقى ليغفو قليلًا حسب العادة الروسية.

وأنهى الحارس عمله فنفض خرقه البالية، وتملَّى معجبًا من الرقعة، ثم غرس الإبرة في كمه، وجلس فوق ظهر المدفع وغنى بأعلى صوته أغنية قديمة حزينة:

لا تصخبي يا غابة خضراء يا أماه،
لا تزعج أفكار ابنك الصنديد.

وفي هذه الأثناء فُتح باب أحد الأكواخ ووقفت عند عتبته امرأة عجوز في غطاء رأس أبيض، أنيقة الهندام جميلته، وقالت بغضب: كفاك يا ستيوبكا ... السيد نائم، وأنت تزعق بملء صوتك. إنك عديم الضمير والرحمة.

– مذنب يا يجورفنا ... حسنًا، لن أفعل ذلك ثانية. فليسترِح سيدي وليتماثل للشفاء.

وانصرفت العجوز، وراح ستيولكا يتمشَّى على الجسر.

في الكوخ الذي خرجت منه العجوز، وخلف حاجز، رقد دوبروفسكي الجريح على سرير متنقل. وكانت مسدساته موضوعة أمامه على طاولة صغيرة، بينما تدلَّى سيفه على الحائط فوق رأسه. وكانت أرض الخندق المسقوف وجدرانه مفروشة بالأبسطة الفاخرة، وفي إحدى زواياه طاولة زينة نسائية مصنوعة من الفضة ومرآة على حامل. وكان دوبروفسكي ممسكًا في يده بكتاب مفتوح، لكن عينيه كانتا مغلقتين، ولم تدرِ العجوز التي كانت تسترق النظر من خلف الحاجز، هل هو نائم أم مستغرق في التفكير.

وفجأة انتفض دوبروفسكي فقد ساد الموقع جو منذر بالخطر، وأطل ستيوبكا برأسه إلى النافذة وصرخ: سيدي فلاديمير أندرييفيتش. رجالنا يرسلون إشارة. هناك مَنْ يتعقبنا.

وقفز دوبروفسكي من السرير، والتقط سلاحه، وخرج من الكوخ. كان قطَّاع الطريق متجمهرين في الفناء وهم يثيرون صخبًا، وعندما ظهر دوبروفسكي لفَّهُم صمت عميق.

وسأل دوبروفسكي: هل الجميع هنا؟

فأجابوه: الجميع ما عدا المراقبين.

فصاح دوبروفسكي: اشغلوا مواقعكم!

فاحتل كل قاطع طريق موقعه المحدد.

وفي هذه اللحظة هرول ثلاثة من المراقبين نحو البوابة، فخف دوبروفسكي للقائهم وسألهم: ماذا هناك؟

فأجابوا: الجنود في الغابة. إنهم يحاصروننا.

فأمر دوبروفسكي بإغلاق البوابة، وذهب ليتفقد المدفع بنفسه. وترددت في الغابة عدَّة أصوات ثم أخذت تقترب، وقبع قطَّاع الطريق ينتظرون في صمت. وفجأة، خرج ثلاثة أو أربعة جنود من الغابة ثم ارتدُّوا على الفور وهم يطلقون النار لإنذار زملائهم.

وقال دوبروفسكي: استعدوا للمعركة!

فسرى حفيف بين قطَّاع الطريق ثم سكن كل شيء من جديد.

وعندئذٍ سمعوا ضجيج الجنود المقتربين الذين لمعت أسلحتهم بين الأشجار، ثم خرج من الغابة حوالي مائة وخمسين جنديًّا، اندفعوا نحو الجسر وهم يصيحون. وأشعل دوبروفسكي فتيل المدفع، فكانت طلقة موفقة أطارت برأس أحد الجنود وجرحت اثنين. ووقع ارتباك في صفوف الجنود، لكن الضابط قائدهم اندفع إلى الأمام فتبعه الجنود واقتحموا الخندق، فأخذ قطَّاع الطريق يطلقون عليهم النار من البنادق والمسدسات

ويدافعون بالفئوس عن الجسر الذي اقتحمه الجنود الحانقون، مخلِّفين في الخندق حوالي عشرين جريحًا من رفاقهم. ونشبت معركة التحام بالسلاح الأبيض. وكان الجنود قد ارتقوا الجسر، وبدأ قطَّاع الطريق يتقهقرون، غير أن دوبروفسكي اقترب من الضابط، ودسَّ المسدس في صدره وأطلق النار. فسقط الضابط على ظهره، وحمله بعض الجنود على أيديهم وأسرعوا بسحبه إلى الغابة. أما البقية فقد توقفوا بعد أن فقدوا قائدهم. وارتفعت روح قطَّاع الطريق المعنوية فاستغلوا لحظة الارتباك هذه وكرُّوا عليهم فردوهم إلى الخندق. وأخذ المحاصرون يهربون فتبعهم قطَّاع الطريق وهم يصيحون. وتم إحراز النصر. وأوقف دوبروفسكي أتباعه معتمدًا على الاضطراب التام الذي أصاب العدو، وتحصن في القلعة بعد أن أمر بنقل الجرحى وتشديد الحراسة وعدم مغادرة أي فرد لمكانه.

ولفتت الحوادث الأخيرة انتباه الحكومة الجاد إلى جرائم دوبروفسكي الجريئة. فجمعت المعلومات عن مكان تواجده وأرسلت سريَّة من الجنود للقبض عليه حيًّا أو ميتًا. وألقوا القبض على بعض أفراد عصابته لكنهم علموا منهم أن دوبروفسكي ليس من بينهم. وبعد عدة أيام من هذا الحادث جمع دوبروفسكي كل أعوانه وأخبرهم أنه قرر تركهم نهائيًّا، ونصحهم بأن يغيِّروا هم أيضًا أسلوب حياتهم، وقال: لقد أثريتم تحت قيادتي، ولكل منكم جواز سفر يتيح له أن يتسلَّل بسلام إلى أية محافظة بعيدة ويقضي هناك بقية عمره في عمل شريف ومتمتعًا بالرغد. لكنكم جميعًا أفَّاقون ولن ترغبوا، على الأرجح، أن تتركوا مهنتكم هذه.

وبعد هذا الخطاب فارقهم ولم يصطحب معه غير «…» وحده. ولم يعرف أحد إلى أين ذهب، وفي البداية تشككت السلطات في صحة هذه الأقوال؛ إذ كان معروفًا مدى ولاء قطَّاع الطريق لزعيمهم، فاعتقدت أنهم يحاولون إنقاذه. لكن الأيام أكَّدت براءتهم، فقد انتهت الزيارات الرهيبة وأعمال السلب والحرائق وأصبحت الطرق آمنة. ثم علم الناس عن طريق أنباء أخرى أن دوبروفسكي اختفى خارج البلاد.

١٨٣٢–١٨٣٣م


هنداوي